الوطنية الجديدة

عزيز نيسين

الاحتفال بالقازان



ترجمة: محمد مولود فاقي

«قصص»

الاحتفال بالقازان

* الاحتفال بالقازان «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: محمد مولود فاقي
* الطبعة الأولى ١٩٩٩

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٢٢٢٠٥
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ - ٤٤١٨١٧٢
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

عزيز نيسين

الاحتفال بالقازان

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب بالتركية
AZIZ NESIN
KAZAN TÖRENI

١

الاحتفال بالقازان

أحدهم ـ تفضلوا يا سيدي ـ أرجوكم ـ تفضلوا إلى هنا نحن لدينا حساسية كبرى للصحفيين.. ـ يايا ـ

آخر ـ أهنئك يا سيدي.

الثاني ـ أشكرك ـ ولكنني لم أفهم. لماذا تهنئني؟

ـ بقازانك الجديد

ها ا ا ا .. نعم.. نعم. القازان أليس كذلك. باستطاعتنا أن نبقى دون قازان أيها السيد.. إنه مهم جداً.

ـ تفضلوا إلى البوفيه.. فالسيد الوالي سيشرفنا. وهو على وشك الحضور.

الثالث: سبق لي التعرف على مقامكم العالي.. ولكن أين لم أعد أتذكر.

ثالث آخر: سيماؤكم ليست غريبة عني.. لقد رأيتكم في مكان ما. انتظروا لحظة.. هل حضرتم حفلة تدشين باب «مذهابا».

ـ مع الأسف يا سيدي إنهم يرتجلون الاحتفالات ويقيمونها في اليوم الذي نكون فيه مشغولين جداً.. لقد ذهبت إلى هناك من أجل إضافة مدخنة جديدة لمعمل الزجاج.

ـ آه يا سيدي.. ومع الأسف الشديد. فأنا لم أحضر ذلك الاحتفال.

ولكن الزملاء تحدثوا عنه طويلاً.. يقولون كان فيه «دجاجة شركسية»، تحدثوا بإسهاب حتى أن كلامهم لم ينته أبداً يا سيدي.. والإنسان لا يستطيع التواجد في جميع الأمكنة في نفس الوقت.

- توقفوا.. توقفوا.. لقد توصلت إلى معرفتك. أنت من جاء يوم شراء الباخرة من اليابان؟

- تمام.. كنتَ حضرت دعوة على متن السفينة.. أنا الآخر تذكرتك.. لقد جذبت انتباهي في ذلك اليوم، حيث كنت تأكل «التورتا بالكريما».

- نعم.. نعم.. أحب التورتا بالكريما كثيراً يا سيدي. لقد أكلتُ الكثير منها في وليمة جرت في أحد الأمكنة.. ومع ذلك لم أستطع مدَّ يدي إلى تلك اللحوم اللذيذة.

- وشخص آخر ثاني: ما هذا الوعاء الذي أحضروه؟

- وشخص آخر ثالث: والله لا أدري! أظن أنه ليس وعاء للغسيل.

- عليكم الصحة والعافية، إنني أشكو من آلام في معدتي.. وأشكو من عسر الهضم.

- أنا أيضاً مثلك يا سيدي.. جميع الناس يشكون من آلام المعدة هذه الأيام.. لقد أصبح مرضاً سارياً.. فأنا أحمل معي دائماً «حبات الفحم» فهل ترغب في حبة؟

- نعم أشكرك جزيل الشكر. يجب أن أحمل معي من الآن وصاعداً حبات الفحم..

- لقد شعرت بالراحة يا سيدي.. التجشؤ يفيد كثيراً.

- e. o. o. بالفرنسية.. u u u u بالفرنسية.. آمان.. فالإوزة المقلية أصبحت جاهزة.. ألا تفضلتم..!

- أشكرك.. أنا أفضل الكلاوي.

أحدهم.. من هو هذا الرجل البدين؟

ـ أي واحد تقصد..؟ هل ذلك الذي يشرب الويسكي؟

ـ لا.. الثاني.

ـ الذي يأكل اللحم البارد.

ـ خلفه.. الذي يلتهم البقدونس..

ـ ها.. ها.. إني أرى دائماً هذا الشخص.. ولكن..

أحد الأشخاص: إن هذه الاحتفالات والولائم ليست إلا وسيلة للقائنا..

شخص ما ـ طبعاً ـ دون أي شك.. والله لولا هذه الولائم لما شاهدنا بعضنا أيضاً. ياسيدي. منذ القديم وعندما كنت صغيراً، كان المرحوم والدي يأخذني يوم السبت من يدي إلى التكية /مقر الطرائق الصوفية/، وفي أيام السبت كنا نذهب إلى مقر الشيخ الرفاعي في «اوسكيدار»، وأيام الثلاثاء إلى /تكية/ النقدشبنديين في «قاسم باشا». وأيام الأربعاء إلى تكية القادرية في «جوروكلوك» وأيام الخميس نذهب لزيارة مقام «مولانا» في باب مولانا.. كل يوم إلى تكيةٍ.. نعم.. نعم هكذا نحن... كنا نلتهم الطعام بكثرة. كانت «الصينيات» الممتلئة بالطعام. تفرغ بسرعة.

ـ لم يكن الغرض من الزيارة هو الأكل بل تواصل المحبة.

ـ طبعاً.. لا تستطيع أن تحصل على المعلاق.

ـ ما هذا المعمل ياسيدي.

ـ والله لا أعرف.. ولكن أغلب الظن أنه معمل للماكينات.

ـ ما شاء الله إنه معمل كبير جداً.

ـ المدينة تتقدم باضطراد ياسيدي.. أوصيكم أن تأكلوا من هذه المحاشي.

ـ شكراً.. فأنا ذاهب إلى احتفال آخر.. بعد الانتهاء من هنا.

- حتى ذلك الوقت أكون قد هضمت الطعام جيداً. قلت إحتفالاً.. هل أستطيع مرافقتك؟

- آ آ آ.. طبعاً.. تفضلوا.

- إننا لا نستطيع متابعة جميع الاحتفالات ياسيدي.

- مع الأسف.. قبل أيام كتبت صحفنا.. أن أمريكا ستقدم لنا الأساس الأول لصنع القنبلة الذرية. هل من المعقول أن يكون هو المعمل الذري الذي كتبت عنه الصحف؟

- هنا يذكرون كلمة قازان... قازان..[1].

- يجب على الإنسان أن يربح ياسيدي.. يجب أن يعمل ويربح.

أحد الأشخاص: متى يتم قص الشريط؟

شخص آخر: إنهم ينتظرون السيد الوالي.

- من هو صاحب هذا المعمل ياسيدي.

- يجب أن يكون الأمريكيين.

- لا أظن.. أن الأمريكيين يقيمون الولائم بهذه الفخامة. بطبيعة الحال إذا كان المعمل لنا.. فهل تعود تابعيته لإدارة المياه أم لإدارة التبغ والتنباك؟

- هل يكرر المعمل ماء الشرب؟ وإذا لم يكن كذلك؟ فماذا ينتج هذا المعمل؟

- إنه معمل قازانات.

- إذن فهو تابع لإدارة التبغ وسينتجون فيه قازانات لصناعة العرق.

إنني أرى هذا الشخص في كل الاحتفالات.

- ومن هؤلاء الذين في المقدمة؟

١ ـ ملاحظة كلمة قازان تأتي بمعنى طنجرة كبيرة.

ـ إنهم المدعوون. هل ستحضر الاحتفال الذي سيقام غداً في /كذا/.

ـ طبعاً.. من العيب عدم الحضور.

أحد الأشخاص: إن تنمية أي بلد يعتمد قبل كل شيء على المعامل أيها الأخ...

الشخص الثاني: أتمنى أن يُفتتح كل يومٍ مصنع. إن الاستاكوزات لذيذة جداً.

ـ آه لو أكلتم الاستاكوز في الاحتفال الذي جرى بالأمس.. من هذا الصغير.. الذي تقول عنه إنه خادم؟.. حفظه الله..

ـ ليحفظ الله أولاد الجميع..

ـ خذ يا ولدي.. هل تريد تفاحة؟ أم برتقالة أم كاتوا خذ يا ولدي..

ـ سكوت.. جاء السيد؟

ـ من هذا؟

ـ لا أدري.. على الأغلب صاحب المصنع... وربما يكون الوزير..

ـ وربما المدير العام... إنني أراكم في جميع الاحتفالات تقريباً ونلتقي في جميع المهرجانات من العيب أن أسألكم.. ماذا تعملون؟

ـ هل تقصد.. أن السيد سيبدأ على الأغلب بكلمة الافتتاح..

* * *

ـ أيها المواطنون المحترمون.. أهنئكم جميعاً بمناسبة وضع القازان الرابع في مكانه.. ووسط هذا الاحتفال الذي يقيمه مصنعنا فقد أقمنا أيضاً محطة توليد الكهرباء المركزية «أصوات ملاعق وأشواك».

فقد قمنا بوضع هذا القازان في مكانه دون مساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية، وبنفس العزم والقدرة والعنف الذي أبديناه عندما فاز منتخبنا الوطني على منتخب المجر ٣ ـ ١. هناك ثلاثة أمريكيين ومهندسان

وأربعة خبراء ساعدونا على تركيب هذا القازان فوق الموقد تماماً. لم نجد ضرورة لجهة ثانية غير أمريكا في تركيب هذا القازان.

ولكن.. بعد التحقيقات الأولية التي أجريت لعدم غليان الماء فيه.. وجدوا أن القازان ظلَّ مرتفعاً عن الموقد ستة أمتار.

إن هذا القازان هو أكبر قازان في الشرق الأدنى والشرق الأوسط والبلقان... وهو في الوقت نفسه «مُبيَّضٌ» ومن النحاس فيه ثقبان صغيران، إن هذين الثقبين قد عولجا هنا.. دون أن نمد يدنا بطلب مساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية.. لقد سُدَّ هذان الثقبان بقطن مغزول وعلكة سوداء.. إن منع تسرب الماء من هذين الثقبين جعل النار دائمة الاشتعال تحت القازان.. لو أن مياه «تركوس» جارية الآن أي غير مقطوعة. كنا جربناه أمامكم.

لقد حمل العساكر الانكشاريون هذا القازان في عهد تمرد وعصيان «قبقجي مصطفى» ومن هناك نقلوه إلى الصدر الأعظم ووضع في منزل «الباشا كيرك آياق خليل» حيث استخدموه كطنجرة لطهي طعام العاشوراء مدة طويلة.؟ ثم كان لهذا القازان وظيفة أخرى.. فقد وضعوه في إحدى السفن. وكان له تسعة مقابض.. أما نحن فأضفنا إليه مقبضاً عاشراً ووضعناه في المعمل.

أحدهم: ولك أخي هذا القازان.. لن يدوم.. أنا ذاهب.

أحد ثانٍ: أنا ذاهب أيضاً.. لنلتقي غداً في حفلة كذا...

ـ ليكن.. أي والله...

ـ مع السلامة...

ـ وهذا القازان..؟



٢

لماذا هربت القطة؟

«لكل سبب فعل مسبِّب».

لا.. لم يحصل.. كنت أريد أن أبدأ كتابتي بعبارات أكثر غرابة وجذلاً.

«في جميع الأحوال.. البشر يحتاجون للراحة». أو مجبرون على الراحة».

الحقيقة كل هذا لم يحصل.. من أجل أن يصدر عن إنسان ما كلامٌ كبيرٌ.. فقبل كل شيء يجب أن يكون هو كبيراً. ولأجل هذا السبب أبقى دائماً مشفقاً على حالي. لماذا؟. لأنني أحاول وبشتى الوسائل في بداية كل حديث عادي.. أو كتابي.. أن أبدأ الحديث والكتابة بكلام جميل منمق ومع هذا. لا يأبه أحد لشخصي ولا لكلامي.

إذن.. ماذا قال أولئك الرجال العظماء؟ يقال: صرَّح فلان وهو من الشخصيات البارزة بأن «الحرارة شديدة في الصيف». آمان.. ماهذا الكلام الجميل؟ ماهذا الإبداع الحقيقي.. إن الإنسانية بحثت عن الحقيقة على مدى قرون طويلة.. بينما أوضحها أحد الرجال العظماء وهو على فراش الموت بثلاث كلمات.

قال: «افتحوا الباب». تصوروا كم من الحقائق نستطيع استخلاصها من هاتين الكلمتين.. «افتحوا الباب». هاتان الكلمتان: هما الطريق الذي شَقَّه الرجل الكبير للإنسانية. «افتحوا الباب». ماذا يعني هذا؟. إنها كلمة

كبيرة. لو حاولنا كشف لغز هاتين الكلمتين ظاهرهما ومضمونهما وألفنا حولهما كتباً ومجلدات كثيرة.. يبقى هذا العمل غير كافٍ.

القصد من هاتين الكلمتين:

ـ أيها البشر لا تبقوا في الحظائر كالحمير. افتحوا باب الحظيرة لتدخل منه أشعة شمس المعرفة.

لا.. إنه يقصد من قوله... افتحو الباب أي انفتحوا على العالم وتلاقوا معه، وخلصوا أنفسكم من سجن أنفسكم».

والأصح من ذلك كله.. بما أن الرجل الكبير. إنسانٌ عاديٌّ. قال وهو يحتضر: افتحوا الباب، ليتخلص من ضيق نفسه.. هذا هو معنى الكلمتين.

عندما أموت وأنتقل إلى الآخرة سيكون أول عمل لي هناك البحث عن «غوته» والعثور عليه وسؤاله:

ـ إن آخر ما نطقتم به وأنتم على فراش الموت: هو «افتحوا الستائر.. ليدخل مزيد من الضوء» ما معنى هذا الكلام الكبير أنا أعرف جواب غوته سلفاً.. سيبتسم ويقول لي:

ـ من... أنا.. أنا.. الذي قلت «مزيداً من الضوء».

ربما قلت هذا الكلام.. لأني أوشكت أن أصاب بالعمى، ورغبت مشاهدة من حولي.

* * *

كنت سائراً في الطريق.. وإذ بقطة تخرج من أحد الأبواب وتقفز أمامي وهي تموء من الألم وبصوت عالٍ.. ثم هربت مندفعة بسرعة كبيرة. ما دفعني إلى التفكير ملياً هو هذه القطة. لماذا هربت القطة من البيت؟. «لكل سبب فعل مسبب».

لماذا هربت القطة؟.. سأحاول الآن أن أوضح لكم هذا الأمر.

ولكنني لا أجد الطريق الصحيح لهذا التوضيح.. هل أتناول توضيح الأمر ديمقراطياً وأبدأ من الأسفل إلى الأعلى.. أم على عادة أهل الشرق عندنا أبدأ من الأعلى إلى الأسفل.. يعني من القطة حتى نصل إلى الوزير. أو أنزل من الوزير حتى أصل إلى القطة. لنبق على عاداتنا..

إن حادثة القطة: جاءت بعد ضربها المبرح مما دفعها للهرب من المنزل وهي تموء متألمة..

هاجمت الصحف بشدة ودفعة واحدة أحد الوزراء.

مما أغضب الوزير غضباً عظيماً.. واحتار في أمره كالعادة، ماذا سيفعل.. أرسل بطلب مستشاره.. وطرح عليه سؤالاً.. فأجابه المستشار على السؤال. ثم طرح عليه سؤالاً ثانياً، فأجابه المستشار عليه أيضاً.

كان الوزير مُرغماً على التخلص من الغضب، وفي الوقت نفسه يود أن يهدئ أعصابه. «في جميع الأحوال الناس مرغمون على أخذ قسط من الراحة».

سأل الوزير مستشاره سؤالاً ثالثاً. فأجابه المستشار على سؤاله.. هذا العمل يجب أن لاينفذ بهذا الشكل.. لماذا نفذه المستشار هكذا؟ هذا غير ممكن أبداً.. بيصير مابيصير.. بيصير لن يصير..

في نهاية الأمر، اكتشف الوزير نقطة ضعف عند مستشاره ففرح كثيراً لذلك. وقام بتوبيخه توبيخاً شديداً. حتى ارتاح بعض الشيء.

إذا رغب الوزير التوجه إلى اجتماع مسائي في ذلك اليوم. وهو في غاية الضيق والتعب، فإن اجتماعه لن يكون ناجحاً، وسيكون الوزير مادة تلوكها ألسن المجتمعين «في جميع الأحوال الناس مُرغمون على الراحة».

كيف سيرتاح المستشار وقد أنّبه الوزير؟. هل يقدم استقالته؟. لا.. ولماذا يستقيل من وظيفته.. سأل المدير العام عن إحدى المسائل. فأجابه المدير العام إجابة كافية ووافية.. ثم عاد وسأل المدير العام عن مسألة ثانية..

فكان جواب المدير العام جاهزاً أيضاً، ثم سأله عن مسألة ثالثة.. فكان الجواب جاهزاً..

- المسألة الثالثة يجب أن لا تكون هكذا... تمام.. فنادى سكرتيره الخاص. وقال له: اكتب.

أملى المستشار وكتب السكرتير. أوووه.. ارتاح.

لو لم يكتب المستشار ما في أعماقه لاشك أنه كان سينفجر... وسيُفسِد سعادة البيت والزوجة والأولاد.

هذا حسن جداً.. ولكن ماذا سيفعل المدير العام الآن؟. إن ماكتبه المستشار غير مقبول أبداً. ضغط على الجرس.

- احضروا لي المفتش السيد علي..

- إن السيد المفتش في مهمة تفتيش منذ عشرة أيام.

- احضروا لي الوالي.

- سمعاً وطاعة.

حضر السيد الوالي.

- تفضلوا ياسيدي.

- ماذا حصل للعمل الذي أسندته إليك.

- لقد نفذته ياسيدي.

- والعمل الثاني.

- هو الآخر نُفذ ياسيدي.

- كيف؟

- عملت... كيت... وكيت.. وكيت.. ياسيدي.

- ماكان يجب أن تفعل هكذا.. ومن قال أن تفعلوا كيت وكيت

وكيت. كان يجب أن يكون هيك. وهيك.. وهيك.. الله.. الله...

وفتح المدير العام فمه وأغمض عينيه.. أووه.. لو لم يفعل ذلك لكان قد اختنق من الغضب..

الآن.. ماذا سيفعل المفتش. هل يصبر.. هذه الأمور لا يمكن الصبر عليها..

ـ أيها السيد المدير.

ـ أفندم.

ـ كيف أفندم.. هذا الصباح ماذا قلت لك؟

ـ تقول هذا الصباح؟ لم تقل لي شيئاً.

ـ كيف لم أقل لك شيئاً؟. أنا قلت لك شيئاً هذا الصباح.

ـ أنا لم أركَ هذا الصباح حتى تقول لي شيئاً.

ـ إذن قلته لك صباح البارحة.

ـ البارحة لم تحضروا إلى المعمل كنتم في المنزل.

ـ إذن.. قبل البارحة.

ـ نعم.. قد قلتم شيئاً.

ـ هاه... هكذا... لقد قلتُ شيئاً... ماذا قلت؟ وإذا قلت شيئاً فلماذا لم تفعله.. هذا غير ممكن أبداً.. هل فهمت؟

أنا لا أرضى بهذا.. قطعياً وغير ممكن.

غضب المدير وقطّب حاجبيه.. «في جميع الأحوال الناس مُرغمون على الراحة».

ـ ليحضر المعاون إليَّ.

ـ على الرأس والعين!

حضر معاون المدير.. فسأله المدير:

- هل جهزت الجدول /D/.

- نعم لقد جهزته ياسيدي.

- هل جهزته على أكمل وجه؟

- نعم.. كل شيء تمام..

- هل أضيفت الأسماء؟

- هل أُرسل؟

- نعم أرسلناه.

لو أخرتم الإرسال بعض الوقت...

- في أي يوم أرسلتموه؟

- البارحة.

- ماذا.. هل تقول البارحة... ما هذا الإهمال؟. وما هذا العمل؟

إن الجميع لا يعملون.. يجب أن يكون هناك إنتاج.. إنتاج.. أريد العمل.. يومياً.. هل فهمت؟

أوه ه... عندما يكتب الإنسان عما في داخله.. فإنه يرتاح كثيراً..

دخل معاون المدير إلى غرفة رئيس القسم.. كان يشخر من شدة الغضب:

- ما هذه الأشياء؟

- الأوراق التي سنرسلها إلى المحاسبة ياسيدي.

- هيه.. تمام.. بالأصل أنتم..

عندما خرج المعاون.. ضرب رئيس القسم يده فوق الطاولة بغضبٍ.

- أين السيد حسن؟

ـ أيهما تقصد ياسيدي.. هل تقصد السيد حسن الذي يعمل في القسم الثاني.. أم حسن موظف القيد.. أم السيد حسن الذي يعمل كاتباً في الديوان.

ـ لا فرق عندي.. أريد حسن الذي يعمل في الديوان..

ـ لقد خرج ياسيدي عندما دقَّ جرس الانصراف.

ـ إذن تعال أنت إلى هنا.

ـ أنا اسمي حسين.

ـ أنا لا أفهم لا حسين ولا مُسين.. أنا أقول لك تعال وكفى.

صرخ في وجهه لمدة عشرة دقائق.. أفرغ كل ما في داخله كسفينة تلقي حمولتها في البحر خوفاً من الغرق.

أما الموظف حسين فقد نزل بالحاجب شتماً وسباً. لم يترك في داخله شيئاً إلا وقاله: ماحال هذه الزجاجات ولَك؟ ألا ترى هذا العنكبوت على السقف.؟.. أنا لا أريدك أن تظل هكذا جامداً.. لا أريد...

هل فهمت. هكذا...

ارتاح الموظف حسين.. وكأنه أصبح بخفة رجل خرج من الشتاء ودخل إلى الصيف فخلع معطفه، وتوجه إلى البيت مرتاحاً وبخفة ذاك الرجل.

بدأ الحاجب الذي وصلت روحه إلى أنفه بالبحث عن البواب. فلم يجده.

كان البواب قد ذهب إلى منزله. ماذا سيفعل؟. «في جميع الأحوال الناس مُرغمون على أخذ الراحة التامة».

بينما كان يركب الحافلة داس رجل على قدمه فصاح فيه:

ـ لقد دست على قدمي.. ألا ترى أمامك.

ـ لم يجبه الرجل.. وجاء قاطع التذاكر منادياً:

ـ تذاكر.. تذاكر..

ـ ألا ترى الزحمة! انظر إلى يديَّ واحدة معلقة والثانية لا أستطيع رفعها من شدة الضغط.

هل تفتح محفظتك الآن؟

ـ لا أستطيع وسأدفع لك عند النزول.

ـ هل هذا القول معقول؟

ـ معقول جداً.

ـ وعندما يأتي المفتش. هل يقبل بسماع هذا الكلام؟. هيا انزل..

كان البواب قد وجد حجة كي يفرج عن غضبه.. فتعارك الاثنان عراكاً شديداً. وعندما وصل قاطع التذاكر إلى المنزل.. كانت زوجته تضحك.

ـ لماذا تضحكين وِلِك.. هل تضحك امرأة على زوجها.

وأنزل بها عدة ضربات بالعصا الغليظة.. حتى جلس إلى الطعام مرتاحاً..

كانت زوجة بائع التذاكر.. تبكي، وبينما كانت قطتها تسير على طرف رجليها انهالت على القطة بعدة ضربات من ملقط كبير كانت تحمله.. ورمتها إلى الشارع.

تحدثت زوجة بائع التذاكر إلى زوجها وقالت: أجمل الحب.. الحب الذي يكون بعد الدموع. وارتاح الزوجان..

ـ «لكل سبب فعل مسبب» فلو لم تهاجم الصحف الوزير بهذه الشدة. فهل كانت القطة ستقذف إلى الطريق وتتألم من الضرب ودون أدنى ذنب.

الناس جميعاً كانوا مرتاحين.. ولكنني لم أستطع أن أرى.. ماذا فعلت القطة بعد ذلك كي ترتاح.. فقد مرت من أمامي بسرعة البرق.



٣

تعزف وترقص

كان رجل يصرخ بأعلى صوته في السوق وقد وضع على فمه مكبراً للصوت من الصفيح.

ـ «ألو.. ألو.. في هذا اليوم وفي تمام الساعة الرابعة سيقدم المسرح الوطني المشهور الذي وصل من أستانبول في ساحة /جنيار/ مسرحيتين كوميدية ودرامية من ثلاثة فصول». من النادر جداً... أن تأتي إلينا فرقتان مسرحيتان وفرقة للجمباز دفعة واحدة. ولهذا السبب حاول مسؤول الإعلام في الفرقة المسرحية الثانية أن يظهر مسرحيته وفرقته أفضل وأحسن من الفرقة الأولى. حيث وقف على عصاتين ومرتدياً لباس مهرج. وبدأ يدور في الساحة من أولها إلى آخرها.. وهو يصرخ.

ـ ألو.. ألو.. إن فرقتنا المسرحية من أكبر الفرق في هذا البلد، وإنها فرقة شعبية للعرض المسرحي. طاقم الفرقة مكون من ثمانية عشر فناناً وفنانة وعلى رأسهم المطربة «آتيان شكيرساس» ويرافقها ستة من أكبر العازفين.. إلى جانب الأغاني والعروض التركية فإن فرقتنا ستقدم الرقصات العربية والفرنجية. وتشترك في الحفلة الراقصة «جليلة جلال» والفنانة السينمائية الشهيرة «ايجة ايكار».

وكي لا تكون الفرقة الجمبازية.. أقل مستوى من الناحية الإعلانية.

ـ ألو.. ألو.. إن أشهر لاعبي الجمباز في هذا البلد... سيقومون بألعاب بهلوانية على حبل واحد.. سيقوم ملك الجمباز «علي جولاق» بذبح كبش

على الحبل.. وسباق للدراجات..

كانت الساحة قد تحولت رأساً على عقب.. فقد امتلأت بأصوات الجماهير الغفيرة والطبول والموسيقى التي كانت تصدح أمام الخيم الثلاث.

كانت الفرقتان المسرحيتان المتنقلتان والفرقة الجمبازية. قد جاءوا إلى هنا.. في وقت غير مناسب وغير ملائم لهم.

ففي هذا اليوم، يصادف حضور زعيم حزب الجماعة الوطني مع ثلاثة من مساعديه، فالصراخ وأصوات وقع الجاز والموسيقى والإعلانات من قبل الفرق المسرحية والجمبازية ستذهب هباء منثوراً. فهم لن يستطيعوا بيع تذكرة واحدة. حتى سكان القرى النائية، فقد حضروا إلى هنا وملأوا الساحة تماماً.. ولم يدخل أي واحد منهم المسرح. لأن رئيس حزب الجماعة الوطني. كان سيلقي خطاباً حماسياً وسط الجموع المحتشدة... ومن سيبقى لديه القدرة بعد ذلك على حضور المسرحيات والعروض البهلوانية؟!

كانت مجموعة من القرويين تجلس في المقهى الكائن على أطراف الساحة في ظلال شجرة دلب كبيرة..

ـ استمعنا إليه في العام الماضي.. يا الله.. كم يتحدث بلطافة.. إن حديثه طلق وسلس للغاية فهو يفهم المواضيع فهماً جيداً..

ـ هذا الرجل يختلف عن الآخرين.. إنه يُضحك الناس أكثر من زعماء الأحزاب الأخرى.

ـ لقد كتب إلينا محمود ابن حما إبراهيم الأقرع رسالة يقول فيها: إن هذا الإنسان قد آماتنا من كثرة الضحك. وأن /حماة/ خضر بالت تحتها من شدة الضحك أيضاً. إنه يذهب من هنا إليكم.. لا تفوتوا هذه الفرصة عليكم. ويقول.. اذهبوا واستمعوا إليه.. وها نحن تركنا أشغالنا وأعمالنا

وجئنا إلى هنا من القرى البعيدة.

- عندما يتحدث الرجل.. فالمسرح لا يساوي قرشاً واحداً أمامه.

- هل يضحك الناس بالمال يا عم مصطفى؟

- لا ولو.. إنه يُضحك الناس كي ينال ثواباً.. في سبيل الله.

- طيب.. وما الذي يجبره على ذلك؟.. هل له مصلحة ما..؟

- ليرى وجه الشعب باسماً... ولينال ثواباً.. إنه يقص بشكل.. التوبة.. التوبة.. سنظل نائمين شهراً من الضحك.

حتى تلك الساعة لم يظهر أحد من مسؤولي حزب الجماعة الوطني في أي مكان.. ولكن الشرطة كانت قد ملأت الساحة والأماكن المجاورة، شرطة راجلة.. وشرطة خيّالة (جندرما).. وشرطة بالدراجات النارية وشرطة في المصفحات... كانت شرطة أربع ولايات قد اجتمعت هنا وملأت المكان.

بعد قليل.. انتشرت شائعة بين الناس مفادها: /شائعة/.

- إنهم لن يسمحوا له بالخطابة في الساحة.

- عجباً..؟ ولماذا يا ترى؟

- ممنوع.

- ولماذا ممنوع.

- الظاهر أن أصحاب المسرحية قد اشتكوا للحكومة بأن الرجل يقطع عليهم رزقهم ويجلب الكساد لعملهم. وبما أن المسرحيات تقام في أماكن مغلقة.. فقد أصدرت الحكومة قانوناً.. منعت فيه رؤساء الأحزاب بالتحدث إلى الشعب في الأماكن المكشوفة.

- وماذا سيحصل الآن؟

- يقولون إنه في السينما... في سينما رضا..

بعد قليل ظهر خبر جديد... بأن السيد رضا لم يوافق على إعطاء صالة السينما له.

ـ يقولون أن رضا يخاف من الأعمال الحكومية.. ويقول.. مالي ومال هذا الاجتماع ربما يقطعون التيار الكهربائي... ويكسرون المقاعد... ويخربون الصالة.. هكذا يقول رضا...

ـ وماذا سيحصل الآن؟

ـ إلى مطعم «كور يوسف».

كانت الزحمة كبيرة جداً أمام المطعم. لكن الشرطة لم تكن تسمح بالدخول لأحد إلا للحزبيين.

كان الواقفون على الباب يتحدثون فيما بينهم.

ـ ولك اسماعيل. ألم أقل لك دعنا ندخل في هذا الحزب. كنا استمعنا إلى الرجل الآن مجاناً.. وبدون تذاكر. ادخل الآن إلى المسرح لعلك تعود إلى رشدك.

ـ ولك يا روحي.. دخلنا ذلك الحزب لنضمن للخال رشيد قرضاً من المصرف.

ـ ألا يجوز الانتساب إلى حزبين دفعة واحدة؟

وهناك شيء آخر يجب أن تعرفوه ويجب علي أن أقوله وبصراحة.

لقد حاولوا جاهدين قطع الطريق علينا في كل مكان نذهب إليه. أحياناً كانت تتأخر القطارات.. وأحياناً أخرى.. كانوا يقطعون الطرق بالمياه.. أو يقطعون خطوط التوتر الكهربائي.. ولكن.. هنا والحمد لله لم نصطدم حتى الآن بأي عائق من هذا القبيل.. وبهذه المناسبة أقدم جزيل شكري لأفراد عناصر الأمن والشرطة.. لتقديمهم التسهيلات خلال فترة إقامتنا هنا. والآن سأترككم تستمعون إلى الأسطوانات.

كان شرطيان جالسين في نهاية الصالة يضحكان بخبثٍ من تحت شاربيهما.

عندما وضع رئيس الحزب الأسطوانة الأولى على جهاز الحاكي.. وحرك أحد الحزبيين الابرة.. والساعد... كانت الصالة هادئة.. والشرطيان مازالا يضحكان.

بدأت الأسطوانة الأولى بالدوران.

ـ آيها المواطنون الكرام.. إن حزبنا فتح صدره للمجلسين.. كما نصت على ذلك مبادئه وتوصياته.. حيث ضمَّن برنامجه وضع دستور عام للبلاد.

ارتفعت درجة الحرارة وانخفض الضغط داخل الصالة، وسيطر على الحضور بالضجر،... بعضهم كان يمسح عرقه.. وبعضهم ترك القاعة إلى خارجها. ثم وضعت الأسطوانة الثانية على الحاكي.. والشرطيان لايزالان يضحكان.. بدأت الأسطوانة تدور..

«آمنية... آمنية.

جانم آمنية «أغنية شعبية مشهورة جداً».

آمان آمنية

ساد الاضطراب أوساط الحزبيين وعمَّت الفوضى.. وهرع زعيم الحزب وأنصاره نحو آلة الحاكي صارخين:

ـ ارفعوا هذه الإسطوانة.

ـ من وضعها؟

ـ لقد لعب أحدهم بالإسطوانات.

استيقظ النائمون.. وعادت الروح إلى القرويين.

ـ لا ترفعوا هذه الأسطوانة؟

ـ اتركوها تغني.

ـ نريد آمنية.

ـ جانم آمنية.

كانت الأصوات تعلو... فوضعوا الإسطوانة الثالثة.

ـ أيها المواطنون الأعزاء.. عندما تختفي الحرية السياسية في أي بلد.. يزول باختفائها كل شيء.

وورد في نهاية هذه الأسطوانة:

ـ عندما نستلم الحكم.. سنفعل هذه الأشياء..

وُضعت الأسطوانة الرابعة:

إن جاويد أو غلوود... ضنا أمه الوحيد

واه دا دا داي دايا وا دا دي دي دي ي ي ي داي ي

كان الشباب قد ألقوا بأنفسهم أمام المنصة وبدأوا بالرقص، بينما لوَّح العجائز بأيديهم وضربوا الإيقاع بأقدامهم مع لحن الأغنية. وعندما انتهت الأغنية.. توقف الرقص. ووضعت الأسطوانة الجديدة.

ـ تأمينات للموظفين حرية الاختيار في الجامعات، محاكم مستقلة... لكل مواطن منزل. نزلت نقطة الماء.

فوق خيمتي وهي تقول شيب

وأعطت المزيد .. المزيد.

لم يبق.. لم يبق...

في هذه المرة نزل العجائز والشباب.. والجميع في حالة من الهيجان.

استمرت هذه الحالة.. أسطوانة خطابية... ثم أسطوانة غنائية... إلى أن قال رئيس الحزب:

ـ أيها المواطنون.. لقد رحلت الجدية من هنا.. وكما تشاهدون. إننا أمام هجمة أخرى. لقد وضعوا بين الأسطوانات أسطوانات غنائية.. لا لمثل هذه الديمقراطية.

عندما انتهى الاجتماع... كان الشباب مازالوا يرقصون.. والعجائز يضحكون.. ولأجل هذا السبب.. انتسبت أعداد كبيرة من المواطنين إلى حزب الجماعة الوطني.

بينما القرويون يرددون: حقاً إنه عرس حقيقي.



٤

باب السرفيس

ما أن ذكر السائق «حي كورتولوش» حتى هجمت على باب السيارة، ومهما حاولت أن أفتح الباب فقد فشلت في ذلك. وعندما وقعت يدي على قبضة الباب وشرعت بتدويرها، بدأ السائق يصرخ من الداخل:

ـ أدرها نحو اليسار.

حاولت ادارتها نحو اليسار ولكن دون جدوى. القبضة لا تدور.. والسائق يصرخ.

ـ نحو اليسار ياسيدي نحو اليسار.... الله... الله... ألم تخدم العسكرية ولك يا أخي..

هل أخطأت بين اليمين واليسار؟ ازدحمت الباصات والشاحنات والعربات الأخرى خلف سيارة السرفيس.. وبدأ شرطي المرور يُصفر بقوة.

أدر بسرعة نحو اليسار ولك.

ـ لا تدور ولك يا أخي.

أخيراً مدَّ السائق يده وفتح الباب.. أدخل إلى السيارة.. وانطلقت بسرعة.. لقد فتح السائق فمه ولم يعد يعرف السكوت أبداً..

ـ العمى شوفي بشر في هذه الدنيا؟.. توه.. ليقهرهم الله.. لم يتعلموا يمينهم من شمالهم حتى الآن.

واستمر السائق في الكلام ولم يغلق فمه بأي شكل من الأشكال..

ـ ستُعلِّم فتح الباب لكل مسافر.. ولك هذا باب وليس مدرسة، يجب إدرة المقبض نحو اليسار. تراه وقد فُتح.. تاك..

لا أريد أن أمدح نفسي.. عندي عادة جيدة جداً... إذا كنت مخطئاً.. ومهما وُجِّهت إليَّ الملاحظات.. فلا افتح فمي أبداً. وأبقى صامتاً.

الظاهر أن السائق لم يصل بعد إلى نهاية غضبه... يثرثر دون توقف..

ـ والله لا أدري.. لماذا يعيش الإنسان الذي لم يتعلم بعد فتح الباب!

كان لون وجهي يتبدل في كل لحظة... من الخجل الذي انتابني.. الرجل على حق. في هذه المرة بدأ الركاب أيضاً يقفون مع السائق.

قال رجل بدين للسائق..

ـ هذا عدم انتباه ياسيدي.. إنهم أناس غير مبالين..

تناوب السائق والرجل البدين الكلام ولم يتوقفوا عن الثرثرة..

ـ والله ياسيدي كرهت حياتي... يجب أن تُفتح دورة لهؤلاء الناس على فتح الأبواب..

ـ لا يا أخي.. لا.. ليس للمدنية مدرسة. إذا لم تكن المدنية في أعماق الإنسان.. فلا جدوى من تعليمه.

يطلب الرجل البدين النزول من السيارة.. وعندما حاول فتح الباب لم يستطع أيضاً. صرخ السائق هذه المرة في الرجل البدين وقال.

ـ أدر القبضة نحو اليمين ياسيدي..

ـ إن القبضة لا تدور ولك أخي.

ـ إنك تديرها نحو اليسار ياسيدي.. هذه القبضة الجانبية عندما تكون خارجاً يجب إدارتها نحو اليسار وفي الداخل نحو اليمين.

ـ ولكن يا أخي إنها لا تدور لا نحو اليمين ولا نحو اليسار.

كان الرجل البدين والباب يتصارعان.. إنه باب سحري لمغارة مليئة بالجواهر والذهب...

مدَّ السائق يده وفتح الباب.. فرمى الرجل البدين نفسه بصعوبة إلى الخارج. فاشتد غضب السائق.. وكان على وشك أن يوجه له السباب والشتائم.. لا يستطيع أحد أن يتحمل كلامه القذر.. تراجعتُ عن فكرة الذهاب إلى «حي كورتولوش».. ولكنني لا أستطيع النزول خوفاً من عدم قدرتي على فتح الباب..

ـ أيها السيد السائق.. أنا أريد النزول هنا..

التصقت على قبضة الباب.. وكنت قد راقبت السائق جيداً أثناء فتحه.. فأدرت القبضة نحو اليمين.. أووه.. الشكر لله.. لم أجد نفسي إلا في الخارج.. انتظر سيارة ثانية..

ـ كورتلوش؟

ـ نعم..

كي لا أجد نفسي في خناق مع هذا السائق أيضاً أخذت القبضة وأدرتها نحو اليسار بدقة. ولكن دون جدوى.. الباب لا يفتح.. أدرت القبضة نحو اليمين عبثاً يُفتح الباب دفعته بكل قواي.. ولكن مستحيل فتحه..

صرخ السائق:

ـ يا أخي ارفعها نحو الأعلى..

عندما رفعت القبضة نحو الأعلى فتح الباب.. هذه المرة أيضاً بدأ السائق يقول:

ـ ألا يوجد أستانبول أخرى؟

وافق أحد المسافرين على كلام السائق وقال:

- إذا كان الإنسان لايعرف فتح باب سيارة.. فيجب أن لا يعيش في هذه الدنيا.

كيف يتحمل المرء هذه الكلمات الثقيلة؟.. المسافرون جميعاً يقفون إلى جانب السائق.

طلب أحد المسافرين النزول في «قره كوي» ولكن الباب لم يفتح.. صرخ السائق.. بأعلى صوته..

- ارفعها نحو الأعلى..

صرخ المسافر..

- إنها لا ترتفع..

- لقد علقت، ولا تريد الارتفاع.

مد السائق يده وفتح الباب. ونزل المسافر من السيارة.. وأنا أيضاً رميت بنفسي إلى الخارج خوفاً من عدم قدرتي على فتح الباب في مكان آخر..

أنا الآن في «قره كوي».. لقد وجدت سيارة أخرى بصعوبة بالغة.. أريد فتح الباب.. والدخول إلى السيارة.. أدرت قبضة الباب نحو اليمين.. لكن بلاجدوى.. نحو اليسار نفس الشيء.. إلى الأعلى.. إلى الأسفل... لا جدوى.. الباب لا يفتح. ولكن آمان... ماذا سيقول السائق، الله يستر إذا كان لسانه فلتاناً، وبينما كنت واقفاً أمام الباب وأدير القبضة في جميع الاتجاهات.. صرخ السائق:

- ادفع ولك ادفع..

سألت السائق...

- وإلى أين سأدفع؟

- ولووو.. إلى أين يكون الدفع يعني؟ ألا تعرف كيف تدفع أيضاً؟

ادفع نحو الداخل.

لم أر في حياتي باباً يُفتح بالدفع نحو الداخل..

- ولك عيني.. لا تدفع الباب.. ادفع القبضة.

وشكراً لله... فُتح الباب وسارت السيارة ولكن السائق لم يتوقف عن الثرثرة.

- ستعلِّم كل راكب كيف يفتح باب السيارة.. مرات ومرات..

قال أحد الواقفين أمام الباب:

- إنهم رجال لا قدرة لهم لصغر عقولهم..

طلب السائق من الرجل الواقف إغلاق الباب المفتوح.

فتح الرجل الباب.. وهمَّ بإغلاقه ثانية بقوة.

- لم يغلق..

أعاد المسافر سحبه بقوة.

- جات.. بات.. كوت..

- شوية.. ولك أخي شوية.. كل ما ستدفعه خمسة وعشرون قرشاً. أخيراً مدَّ السائق يده وأغلق الباب.. وبدأ بالكلام القاسي والثرثرة ولم يغلق فمه.

- كل أسبوع أصلح باباً.. نعمل ونربح وندفع ماجنيناه في تصليح الأبواب.

هذا ليس عملاً.. ألا يوجد في بيوتكم أبواب.. الباب كالساعة.. يجب إغلاقه بهدوء. طلب أحد المسافرين النزول في «غلطة سراي».. مرة ثانية الباب لا يُفتح بدفعه.. يدير القبضة يميناً ويساراً.. يضرب الباب بيده بقدمه.. أصوات قرقعة كثيرة ولكن بدون جدوى.. في نهاية المطاف فُتح الباب.. ووجدت نفسي في الشارع..

ـ كورتولوش..

ـ نعم تفضلوا..

أن يتفضل المرء فهذا أمر عادي... ولكن كيف ستتفضل؟. التصقت على قبضة الباب أرفعها نحو الأعلى. والباب لا يتحرك.. أنزلها نحو الأسفل لاتنزل.. ولا تدور.. لا إلى اليمين ولا إلى اليسار.. تدفعه فلا يتحرك.. ليقهر الله.. الشيطان.. القوة.. استعملت كل قواي لكن بدون جدوى.. إذا نهض إبليس من جهنم فلن يستطيع فتح هذا الباب.

ـ اسحب لناحيتك.

فُتح الباب عندما سحبته لجهتي... وبدأ السائق بالثرثرة.. والله.. لن أقدر أن أتحمل بعد الآن..

ـ ولك أخي.. كل سيارة بابها يفتح على نقيض السيارات الأخرى... وماذنبنا نحن في هذا الأمر.. بعضها نحو اليمين.. وبعضها نحو اليسار.. وبعضها إلى الأعلى. والأسفل.. والآن ستدفع إلى الأمام.. وتسحب نحوك..

غضب السائق غضباً عظيماً ثم تابع كلامه:

ـ هل من المعقول أن لايعرف الإنسان معلومات بسيطة إلى هذا الحد... مقابض سيارات «فورد» تدار نحو اليسار.. ومقابض «ستوباكر» نحو اليمين... ومقابض سيارات «شيفروليه» تدار إلى الأمام.. ومقابض سيارات «هيلمان» للخارج... أما سيارات «البويك» فلا يوجد أسهل منها.. تدار المقابض نحو اليمين ثم نحو اليسار.. ثم تسحب المقبض بنفس الشيء نحوك.. وتدفعه نحو الأعلى.. وتنزله إلى الأسفل بقوةٍ ثم تسحبه نحوك.. وتضغط على المقبض بعض الشيء وتدفعه نحو الأمام.. ترى الباب يُفتح فوراً.

يشرح السائق كيفية فتح أبواب كل نوع على حدة، وأنا أستمع إليه

بتذوقٍ. ثم أنهى كلامه بحكمة خاصة به:

ـ إذا كان الإنسان لايعرف هذه الأشياء البسيطة. فلابد أن يكون ضعيف العقل.

وافق أحد الركاب على كلام السائق.

ـ إنه غباء ياسيدي.. غباء حقيقي.. في مدينة كاستانبول مثلاً: هناك من عشرين إلى ثلاثين موديلاً من السيارات.. فالإنسان الذي يعيش في هذه المدينة ولا يعرف أنواع السيارات.. ليرم نفسه في البحر..

وافق السائق على كلام الرجل وقال:

ـ نعم.. هكذا.. الموت في أعماق البحر.. أفضل من العيش بدون فهم..

ـ الأفضل أن نضع أمامه كيساً من التبن حتى يأكله..

هذا الرجل.. الذي شتمني وبهدلني.. نزل في «تقسيم»، وبينما كان ينزل من الباب.. بدأ يصرخ وبألم...

ـ واي.. آمان...

ـ ماذا حصل.. ماذا جرى لك؟

كان إبهامه الأيسر قد علق بين الباب وهيكل السيارة عندما همَّ بإغلاق الباب. لقد عوقب هذا الجاني .. الذي بهدلني.. كان يشتم الباب ويضربه والدماء تسيل من يده..

ـ لم أر في حياتي باباً كهذا.. هذا الباب قليل الناموس..

بينما كان الرجل يصرخ أمان.. وإذا بالسائق يضغط على البنزين..

كنا نطير بقوة نحو حي «الحربية».. أراد أحد الأشخاص الصعود إلى السيارة.. لكنه لم يستطع.. أبداً، هذا ليس باب سيارة إنه باب قلعةٍ قليل الناموس. حتى ولو جاء السلطان محمد الفاتح.. الذي فتح أبواب

القسطنطينية فلن يستطيع فتح باب السيارة.. صرخ السائق في وجهي:

ـ اضغط.. اضغط.. ولك اضغط.

ـ إلى أين اضغط..؟

ـ آلم تركب في حياتك سيارة؟ اضغط على الزر؟

ـ ولكن أي زر.

ـ زر المفتاح ولك..

هل تعرفون مكان هذا الزر الذي يتكلم عنه؟ في مكان لا علاقة له لا بالباب ولا بالمفتاح... ولا بالمقبض.. إنه داخل السيارة تحت زجاج النافذة. ضغطت على الزر بينما كان السائق يحرك المقبض.. عندها فُتح الباب.. وألقيت بنفسي بصعوبة إلى الشارع.

قررت أن أسير على قدمي.

وقفت قربي سيارة، وصرخ سائقها في وجهي قائلاً:

ـ إلى أين ياسيدي؟

ـ إلى كورتلوش.

نظرت إلى السائق.. كان رجلاً في خريف العمر.. قلت في نفسي من المؤكد أن هذا الرجل لا يكفر ولا يشتم بعد هذا العمر.. كان في داخل السيارة ثلاثة ركاب آخرين.. يا ترى: هل أعرفُ فتح هذا الباب؟ تذكرت أن لكل نوع من السيارات طريقة خاصة لفتح الباب. قبل أن أمد يدي إلى الباب سألت السائق:

ـ ما نوع سيارتكم؟

ـ ديسوتو...

ـ هل تقول ديسوتو.. كيف يفتح هذا الباب؟ بالأصل لا مقبض له.

ـ ادفع....

أدفع..

ـ ادفع بقوة.. اضغط بقوة.

ـ اسحب لجهتك اسحب.. وأدره.

ـ لقد أدرته.

ـ كم مرة أديره؟

ـ مرتان..

ـ لا .. ارجع من الأول.. أدر ثلاث مرات.

جاء السائق لمساعدتي. وهو الآخر لم يستطع فتحه.. لقد فتحنا الباب بصعوبة بالغة.. أنا من الخارج والركاب مع السائق من الداخل.. في هذه المرة أبى أن يُغلق.. سحبته مع السائق دون جدوى والباب لا يغلق. سحبته بقوة حتى اهتزت السيارة القديمة.. وإذا بصوت قوي «كوت» قال السائق عندها:

ـ هاه لقد أُغلق الآن..

بدأ السائق يتحدث عن الموقف بشكل عام.. قال أنه اشترى السيارة في العام الماضي بخمسين ألفاً.. ولكن الركاب حولوها.. إلى خردةٍ خلال هذا العام.. فهم لا يعرفون كيفية فتح الأبواب وإغلاقها. وأنه يقوم بالإصلاح كل شهر مرة.. عَمدَ السائق إلى الشتائم والسباب والحمد لله.. السباب ليس موجهاً إلي هذه المرة ولكن إلى الآخرين.

وصلنا إلى «كورتولوش». فتوقفت السيارة.. حاول أحد الركاب فتح الباب ولكنه لم يستطع.

بدأت أطبِّق ما تعلمته من الآخرين.

ـ هذه السيارة ديسوتو.. ارفع نحو الأعلى وادفع نحو اليسار.

بدأ الراكب الثاني بالتعامل مع الباب.. والثالث يساعده. مدَّ السائق يده نحو الباب وهو يثرثر.. لا أحد منا يستطيع فتحه.. نحاول فتح الباب الثاني ولكنه لم يفتح.. لقد حبسنا داخل السيارة. بدأ السائق بالكفر ووجهه غارق بالعرق. بعضنا يتجادل مع الباب اليميني، والبعض مع الباب اليساري، لقد أصبح باباً سحرياً كما في الحكايات.. لا يفتح مهما حاولت.

ـ هيا اسحبوا الباب بأكمله.. وتحملوا بعض الشيء.

كانت السيارات والحافلات قد ازدحمت خلفنا. طلبت شرطة المرور من السائق بأن يسحب السيارة إلى جانب الطريق. عندها خلع أحد الركاب معطفه وحاول جاهداً فتح الباب.. أما الشخص الثاني فكان يضرب الباب بقدمه بقوة. بينما السيدة الوحيدة الموجودة في داخل السيارة كانت تصرخ بأعلى صوتها.

ـ النجدة..

ـ اسكتي.. ياخانم.. سيظن الناس أننا نخطفك..

وصلت الشرطة إلينا بينما تجمهر الناس حول السيارة.

ـ ماذا يحصل هنا؟

ـ الباب لا يفتح.. بقينا محصورين.

كانت المرأة تصرخ دائماً، والسائق يسبُ ويشتم الركاب الذين خلعوا قفل الباب، بينما الناس خارجاً يضحكون لوضعنا..

ـ ألا يوجد مطرقة هنا.. مطرقة..

ـ لايُفتح إلا بالمطرقة.. ونحن بحاجة إلى قارص أيضاً.

ـ أفضل شيء أن تحضروا مصلحاً.

عمَّ الظلام.. ونحن مازلنا محصورين داخل السيارة.. والمشاهدون يزداد عددهم باضطراد. الباب لا يفتح من الخارج ولا من الداخل.. قال

سائق آخر لسائقنا.

ـ هذا الباب لايفتحه إلا الحداد يانكو في «يني شهير» قبل أيام كنت قد أخذت بعض الركاب إلى «بيوك دارا». أنا الآخر حصل معي مثل ما يحصل معكم.

عجزنا عن فتح الباب.. احضروا لنا خمسة حدادين فلم يستطيعوا فتحه.. وهكذا لم يبق سوى الحداد يانكو..

ذهبنا إلى ورشة الحداد يانكو في يني شهير.. وكان المعلم قد ذهب إلى منزله.

ارسلوا في طلبه.. ونحن مازلنا في الداخل على وشك الانفجار. حضر المعلم بانكو بعد مضي ساعة أو ساعتين من الزمن.. واستغرق أكثر من ساعة على فتح الباب. ولكنه لم يستطع.. وقال لنا:

ـ خذوا هذا الباب إلى معلم المفاتيح «ايبو». في «تارلا باشي»، ذهبنا إلى معلم المفاتيح ايبو. فقال لنا:

ـ إن لسان القفل قد علق في الثقب.

ـ وماذا سنفعل؟..

ـ هذا العمل لا يكون في الليل.. إنه بحاجة إلى شغل نهار كامل، في النهار إنشاء الله كنا نصرخ في الداخل ونرجوه أن يبذل جهده لفتح الباب.

ـ دخيل الله ياأسطة ايبو.. لقد وقعنا في موقدك.. خلصنا من هذا المأزق.. اطلب ما تريد.. مائة مائتين: وبدأت السيدة بالبكاء.

ـ آه.. ماذا يحصل.. على الأقل أخبروا زوجي بذلك.

بدأ الأسطة ايبو بالشغل لأنه أشفق علينا.. وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشر ليلاً.. قال:

ـ غير ممكن أبداً.. هذا عمل طويل.. اخرجوا من النافذة.. !.

في البداية خلصوا المرأة. أخرجت رأسها من النافذة أولاً ثم أمسكنا، رجليها من الداخل وتمّ نقلها للخارج وأوقفوها على الأرض.. أما أحد المسافرين فكان بديناً. لم نقدر على إخراجه من النافذة أبداً.. ثم أخرجوني.. وظل الآخرون يحاولون إخراج الراكب البدين.

وبين وقت وآخر. كانوا يقولون لي «ساعدنا ياأخي».. سحبنا الرجل إلى منتصف ظهره تقريباً.. ولكن عندما وصلنا إلى بطنه وظهره.. فقد عصى الرجل في النافذة.. لا يتقدم نحو الأمام ولا يعود إلى الخلف.. نصف جسمه في الداخل والنصف الآخر في الخارج.

كان الرجل يتوسل إلينا بقوة.. أنا لا أريد النزول ارجعوني إلى داخل السيارة؟

ـ لم نستطع إعادته..

ابتعدت من هناك رويداً رويداً.. ولا أدري ماذا فعلوا بالرجل.. ووصلت إلى «كورتولوش» سيراً على الأقدام.. وأقسم لكم! أني عزفت عن ركوب السرافيس مرة ثانية..



٥

كم مشفى صار حتى الآن

كنا نحمل بطاقة توصية. لا للدخول إلى عمل.. بل لدخول المشفى. وكنا راضين أن نضع مريضنا مع مريضين أو ثلاثة بدلاً من أن يظل خارج المشفى. ولهذا السبب قدمنا للطبيب العالمي الشهير «أورديناريوس» هذه البطاقة.. المريض أحد أقربائنا.. وكان برفقته إلى المشفى أحد الأقرباء الآخرين.. ربما أنني شخصياً أخاف دخول المشافي قررت أن أنتظرهم أمام الباب، وسط مجموعة من المرضى ينتظرون دورهم.. إما جالسين على الأرض أو واقفين على أرجلهم.

كان باب المشفى البلوري الكبير والذي يفتح آلياً. مؤلفاً من درفتين، يفتح كل ثلاث أو أربع دقائق مرة واحدة ويدخل ويخرج منه على التوالي رجال ونساء ثيابهم بيضاء من رأسهم إلى أخمص قدميهم. كان الباب بدرفتيه يفتح للداخل والخارج. وعندما يخرج أحدهم كان الباب يتحرك دون توقف دائماً نحو الداخل والخارج حتى يدخل أو يخرج إنسان آخر.

كانت عيناي معلَّقتين على الباب الزجاجي الكبير.. الداخلون والخارجون منه ذوو اللباس الأبيض يجب أن يكونوا أطباء أو ممرضين.. ومن جميع الاختصاصات، حتى أن بعضهم كان يلبس اللون البني.. وبدأت أفرق بين الذين يلبسون الثياب السوداء والبيضاء من كثرة مراقبتي لهم. لأن الممرضين والخادمات والأطباء.. كلهم يلبسون الأبيض.. بعض

الأطباء كانوا غير معتنين بلباسهم ولا شعرهم حتى ولا حلاقة ذقنهم.. عكس الممرضين والممرضات، الذين كانوا يقلدون الأطباء فيشمخون أكثر من الأطباء أنفسهم. مشية الأطباء كانت عادية جداً. أما الممرضون والممرضات فكانت مشيتهم كمشية «الفيلد مارشال». الأطباء يتبسمون ويضحكون عكس الممرضين والممرضات الذين تظل وجوههم عابسة، وحواجبهم مقطبة. لم أنقطع عن مراقبة تحركات وتصرفات ذوي الألبسة البيضاء.. لأنني كنت انتظر الخبر من داخل المشفى عن قريبي المريض.

الأطباء هم أطباء حقاً، أما الممرضون والممرضات فكانوا يشمخون أكثر من الأطباء في تصرفاتهم ومشيتهم ومنظرهم.. ولكن ثمة إشارة كانت تفرقهم عن الأطباء.. وتلك الإشارة هي جواربهم الممزقة ثيابهم أنيقة... المريول، ناصع البياض.. البنطال مكوي بشكل نظامي، والجوارب بيضاء ولكنها ممزقة من الكعب حتى الركبة.. وكأن هذه الإشارة وضعت خصيصاً للتفريق بينهم وبين الأطباء.

كان أحد الممرضين. يسير على مهل في الممشى.. مرفوع الرأس، أنفه نحو الأمام.. ويداه خلف ظهره.. اقتربت منه. وقلت:

ـ المعذرة يا سيدي:

لم يسمعني وتابع سيره.. سرت معه كي اكمل كلامي وسؤالي..

ـ المعذرة يا سيدي أحد المرضى دخل من أجل المعاينة...

لم يحرك رأسه... واستمر في السير دون أن يأبه لكلامي.

ـ أحد مرضانا في المعاينة...

لكن أنفه ظل يحاكي برواظ النافذة.

ـ أحد المرضى.

لا ينظر أبداً.

ـ أحد المرضى..

دخل من الباب دون أن يحرك رأسه أو يلتفت.. في تلك اللحظة كان أحد المرضى الواقفين الذين ينتظرون الدور.. قد ألقى بنفسه على مدخل الباب.. وصار يتخبط من الألم الشديد.. ويصرخ بأعلى صوته طالباً النجدة والإسعاف. قال أحد الممرضين.. وهو يقترب منه صارخاً:

ـ لا تُغلق الباب (وَلَك) قف على جنب.

مرَّ من فوق الرجل وذهب، أما أنا فلم أستطع تحمل أنين ذلك الرجل الذي كان يتلوى على الأرض من شدة الألم . فقلت لأحد الممرضين.

ـ بالله عليكم.. أخبروا الطبيب بالأمر.. ربما يعطونه مخدراً أو مسكناً.

فرمقني بنظره من رأسي إلى أخمص قدمي.. وسألني.

ـ هل هذا الشخص قريبك؟

ـ لا ليس قريبي.

ـ إذا كنت لا تمت له بالقربى وليس لك علاقة به. فلماذا تتدخل في شؤون غيرك؟

ـ باسم الإنسانية.

ـ هل أنت الوحيد الذي بَقيتْ الإنسانية تحت أمره وكفالته؟

سار بغضب واختفى عن الأنظار.. شعرت ببعض السعادة لأنه على الأقل تحدث وتجاوب معي. في الوقت الذي بدأ الرجل المريض يزيد من صراخه وأنينه.. أمسكت ممرضاً آخر. وقلت له:

ـ إنه ذنب كبير.. أخبروا الطبيب عما يحصل هنا؟

ـ أو... أوه.. إنه يمثل ولك أخي.. رأينا الكثير من أمثاله. عندما أشاهد أمثال هؤلاء.. أفهم تمثيلهم على الفور.

ـ هل يستطيع الإنسان أن يمثل هكذا؟. وما مصلحته في التمثيل؟

ـ كي يدخل وينام في المشفى.

وضحك ضحكة الثعلب الماكر ومشى، وهو يقول مع السلامة.. مع السلامة. كان الرجل يتلوى على الأرض.. والآخرون لا ينظرون إليه أبداً... ولكن امرأة كانت تقول بين وقت وآخر..

ـ واه... واه..

مرَّ اثنان من ذوي الألبسة البيضاء وكانا ينقلان مريضاً على عربة بعجلتين. شعرهما مسرحُ ومصفف على أكمل وجه.. بنطالهما وقميصهما مكويان.. ولكن الإشارة موجودة على جواربهما.. خرجا من الباب وهما يدفعان أمامهما نقالة سُجِّي عليها مريض وكانا يتدافعان ويضحكان.

ربما يكون قد خرج لتوه من غرفة العمليات، لأنه كان في حالة غير طبيعية. عندما تدحرجت العربة بقوة على الطريق الرملي.. أفلتت إحدى عجلاتها.. ومالت نحو الأرض. وظهرت ساق صفراء رفيعة من العربة.. كان الممرضان يحاولان إعادة الدولاب إلى مكانه... دون أن يستطيعا إلى ذلك سبيلاً.. وكانا غاضبين.. وشرعا بالسباب والشتائم.

ـ أيتها العربة الحقيرة سأفعل لك....

ـ قليلة الناموس..

ـ ولك يا أخي أين ثقب هذه.. فتش عنه..

بينما كنت أراقبهما وأنا واقف على الباب. اقترب عجوز طويل اللحية من المكان الذي كنت واقفاً فيه.. كان العجوز ينتعل جزمة كبيرة عريضة ويلبس جورباً من الصوف مشدوداً نحو الأعلى.. بنطاله مرقع بعشرات الرقع... بحيث لا تعرف القماش الأصلي للبنطال.. وقد شدَّ على ظهره وفوق معدته.. طوقاً قماشياً.. ربما لفه على نفسه أكثر من عشر لفات. ويرتدي سترة عسكرية وعلى رأسه قبعة مثقوبة.

وقف العجوز على الباب.. وتلفت حوله.. فشاهد ممرضاً واقفاً واضعاً يديه خلف ظهره فاقترب منه وقال:

ـ أين الخدمة الثالثة في الخارجية الأولى..

نظر أبو الجوارب المثقوبة.. إلى الرجل بدقة وقال له:

ـ هل تريد الخدمة الأولى في الخارجية الثالثة أم الخدمة الثالثة في الخارجية الأولى؟

احتار العجوز فيما سيقوله.

كان الممرض ذو المريول الأبيض يريد مساعدة العجوز.. فقال له:

ـ انظر إلي جيداً.. يوجد لدينا الخارجية الأولى والخدمة الأولى.. وكذلك الخدمة الثالثة من الخارجية الأولى.

فاحتار الرجل كلياً..

ـ إحداهما الثالثة.. والأخرى الأولى.. ولكني أحترت أيهما الثالثة وأيهما الأولى؟

ـ يوجد عندنا أيضاً الخدمة الثالثة من الخارجية الثانية.. ربما تريد الخدمة الثالثة من الخارجية الأولى؟

أطبق العجوز جفنيه.. وحكَّ رأسه وقال:

ـ لقد احترت تماماً...

ـ هل أخذت رقم المشفى؟

ـ ربما اثنان.. تمتم الرجل..

ـ أو ربما تريد الخدمة الثانية من الخارجية الأولى.. فكر جيداً.

ـ الآن أضعتُ كل شيء.. كلما أطيل في التفكير.. أضيع أكثر.

ـ يجب على الإنسان أن يتعلم هذه الأرقام يا روحي.. يوجد لدينا

أيضاً الخدمة الثالثة من الخارجية الثانية. وهي في المشفى الأول..

قال العجوز مكرراً:

ـ أحدهما ثلاثة والآخر واحد.

ـ فكر جيداً.. بل تذكر جيداً ألا يوجد (المشفى الثاني).

ـ يوجد.. هذا واضح.. يوجد واحد ويوجد ثلاثة..

ـ هل تقول الخارجية الثانية.. والخدمة الثالثة.. أو الخدمة الأولى من الخارجية الثانية والمشفى الثاني.

فأخرج العجوز علبة دخانه من نطاقه.. ولف سيجارة.. وأشعلها كي يتذكر الرقم الصحيح والمكان الصحيح. ثم فكر.. وفكر.. وفي النهاية..

ـ بكل تأكيد.. واحد.. وربما.. ماذا قلت... المشفى الثاني أليس كذلك.. بدأ الممرض بتعداد الأرقام.. كأنه علاّمة كبير.

ـ وماذا في الأمر.. حتى لا تفهمه يا روحي.. الخدمة الأولى من الخارجية الثالثة من المشفى الثاني.. وثانياً.. ياسيدي.. الخارجية الأولى من الخارجية الثالثة من المشفى الثاني.. والخدمة الرابعة من المشفى الأول..

آمان ولك عمي.. والله حيرتني في أمرك.. أنا الآخر قد اختلط الأمر علي.. انظر إلي جيداً.. سأبدأ من الأول.. الآن هل تريد الخدمة الثالثة من المشفى الثاني من الخارجية الأولى.. وإلا....

كان العجوز ينصت إلى الممرض بإعجاب وهو يكرر.. الأول.. الثاني.. الثالث، وقد توزعت عيناه يميناً وشمالاً.. وقال في نهاية المطاف:

ـ عجباً كيف تعرف كل هذه الأرقام والأسماء.. وتعددها. واحداً واحداً. من الذي سيتذكر كل هذه الأشياء..

رفع الممرض أنفه نحو الأعلى متباهياً وقال:

ـ هذا ليس سهلاً ياعمي.. ليس سهلاً.. هذه وظيفة.

كرر العجوز ثانية: عجباً!!...

ـ الآن فكر منذ البداية.. وانظر إلي جيداً.. ماذا سأقول لك؟

عندنا الخارجية الأولى من الخدمة الثالثة من المشفى الثاني.. ضع هذا في زاوية من رأسك.. وبعد.. الثالثة.....

بدأ الممرض بالعد من البداية.

قال العجوز وكأنه تذكر شيئاً:

ـ توقف قليلاً.. هل تتذكر ماذا قلت لك في المرة الأولى؟. أية خارجية قلت لك؟. وأية خدمة.. ذكرت لك؟. إنني أبحث عن المكان الذي ذكرته لك أول مرة.. فالصحيح هو ماقلته لك أول مرة؟

ـ هل تقول المرة الأولى؟

هذه المرة بدأ الاثنان يفكران.. ولم يتذكرا ما قاله العجوز أول مرة:

سأل الممرض العجوز.

ـ على من كنت تبحث هناك؟

ـ أبحث عن ابني فقد جاء من القرية ليعمل عملية جراحية.

ـ اذهب الآن.. واحفظ العنوان جيداً وارجع إلينا..

ـ عنوانه.. في القرية؟

ـ تعال في وقت آخر.

ـ ايه ولك ابني.. لقد دفعت تسع ليرات ثمن بطاقة سفر بالسيارة.

هل رأيت الآن..؟ أتريد أن يذهب هذا المبلغ هباء؟.. والسيارة ستعود عند العصر.. أترى هذا الحظ.. ليس لي نصيب في رؤية ابني..

أنت تعرف يا ربي؟.. ربما كانت الخارجية الثالثة؟

ـ وربما الأولى.. الخدمة الثانية من الخارجية الأولى من المشفى الثاني.. أليس كذلك؟

ـ توقف قليلاً.. اسمه محمود.. اخرجوا من بطنه علةً.. محمود بن رجب.. إذا رأيته قل له أن أباك جاء وذهب.. ثانية.. ربما كانت الخدمة الثالثة؟... هيا إلى اللقاء.. أي مشفى ياترى؟.. استودعك بأمانة الله.

ـ مع السلامة ياعمي.

ذهب العجوز وهو يردد الثالثة والأولى.. أرخى الممرض يديه من خلف ظهره وأدخل يده اليسرى في جيبه ودخل إلى المشفى..



٦

هل يُبلل أم لا؟

كانت البطالة قد قضت عليَّ.. أردت أن أعمل بأي عمل كان.. حتى ولو كان زبالاً..

قال لي أحد معارفي:

ـ إن السيد راغب بحاجة إلى شخص.. سأرسلك إليه..

ـ إذا كان يبحث عن رجل.. فهل سيجد رجلاً أفضل مني؟ ولكن ماهو العمل؟

ـ والله لا أدري..

كتب ورقة وأرسلني إلى السيد راغب.

عندما دخلت باب منزله الصيفي.. كان السيد راغب يتحدث لشخصين أمامه بهذه الكلمات.

ـ لو كنت أحمل في يدي زجاجة ماء.. فهل أستطيع أن أُبلل بها كل هذه المنطقة؟

بالتأكيد لا أستطيع ذلك.. وبناء عليه.. وبما أنني لا أستطيع أن أبللها.. إذن...

قدمت له الورقة التي كانت معي.. فقال:

ـ تفضلوا.. اجلسوا..

تحدثوا بعض الوقت.. وغادر الرجلان بعدها. وعندما بقينا لوحدنا قال لي:

- عمري الآن ستة وخمسون عاماً.. أشياء وحوادث كثيرة مرت على رأسي.. بعد هذه التجارب الحياتية الكبيرة توصلت إلى نتيجة...

علمتني أن افتح عيني وأذني دائماً.

- لقد تعلمت من الحياة... هذه المسألة.. فمثلاً.. لو كان في يدي زجاجة.. أفندم.. هل أستطيع بماء هذه الزجاجة أن أبلل هذا المنزل الصيفي؟ أم لا أستطيع..؟ أفندم..

كان علي أن أجيبه على كل سؤال يطرحه علي.. ياترى ما الجواب الذي يرضيه أو يعجبه؟ هل أقول له.. تستطيع أن تبلله؟. أو لا تستطيع أن تبلله؟

قبل قليل توجه بهذا السؤال إلى أحد الرجلين، وأجاب بنفسه عليه.. طبعاً لا أستطيع أن أبلله.

عندما شاهدني أفكر.. كرر السؤال..

- هل يبلل.. ياسيدي؟.

ارتجفت من الخوف وكأنني أتقدم لامتحان الشهادة الثانوية..

فبدأت أقيس طول وعرض المصيف نظرياً.. عرضه تقريباً أربعة أمتار وطوله ستة أمتار..

- هل يبتل.؟. أم لا يبتل.. ياسيدي.. ياسيدي.

قلت: وما حجم الزجاجة.

احتار...

- أية زجاجة؟

- الزجاجة المائية التي ستبلل بها هنا..

إن تبدل معالم وجهه يؤكد أنه لم ينتظر مني هذا السؤال:

ـ زجاجة عادية.. زجاجة ماء..

ـ لا تبلل ياسيدي.

ـ هل رأيتم.. لا تبلل.. هكذا.. بناء عليه... فعلى كل إنسان وانطلاقاً من معرفته بهذه الحقيقة.. يعطي الجواب أليس كذلك؟..

ـ نعم..

ـ لقد قبلتك في العمل.. هنالك رجل يعمل عندي.. سأطرده أمامك..

لقد وضعني في موقف حرج جداً.. لأن الرجل سيُطرد من العمل. وهذا ما أثر فيَّ.. وفي ضميري..

ـ أنا لا أرضى ياسيدي.. أن أقطع رزق أحد بسببي.

ـ لا.. حتى ولو لم أقبلك للعمل.. كنت سأطرده.. لم أر في حياتي رجلاً عنيداً مثله.. انظر سأناديه.. وشاهد بنفسك..

رن الجرس.. وقال لحاجبه الذي مثل أمامه:

ـ أحضر زجاجة ماء.. وأخبر السيد ممتاز أن يأتي إلى هنا.

في بداية الأمر.. دخل السيد ممتاز إلى الغرفة.. وبمجرد رؤيتي للرجل.. أحببته من كل قلبي، كان وجهه يطفح بالبشر والسرور.. شخص محبوب جداً. وليس فيه مايدل على عنادٍ كما قال لي الرجل.. فقال.. للمعلم:

ـ تفضلوا ياسيدي.. لقد أرسلتم بطلبي..

في تلك اللحظة كان الحاجب قد أحضر زجاجة الماء. عندما شاهد الرجل الماء.. غابت الابتسامة عن وجهه. وقطب حاجبيه.. وشدَّ عضلات خديه.. وبدأ فكه بالرجفان.. وتعجب من تصرفات الرجل الآنية.. كيف يحصل هذا؟. كيف ولماذا هذا التغيير المفاجئ عند الرجل.. أصبح وجه

السيد ممتاز كرجل فيلم «لعنة الذئب». عندما يرى القمر يتحول إلى ذئب متوحش.

تناول المعلم زجاجة الماء وسأله:

ـ لو أفرغت ماء هذه الزجاجة على الأرض.. هل يبللها.. ياسيدي؟

فصرخ السيد ممتاز:

ـ يبلل....

كان وجه السيد ممتاز قد تحول إلى وجه وصورة كلب من نوع «بولدوك».

قال المعلم:

ـ لا تبلل...

قال السيد ممتاز وهو يشد على أسنانه..

ـ يبلل..

ـ لا يبلل

ـ يبلل

ـ لا يبلل

ـ يبلل

قال المعلم موجهاً كلامه لي:

ـ هل رأيت كيف ينكر الحقيقة دون أي مبالاة.. الآن.. هل هذا الماء يبلل هذا المكان أم لا يبلل ياسيدي؟

ـ قلت لك لا يبلله..

ـ طبعاً لا يبلله. ولا أحد يجبرني أن أعمل مع مثل هذا الشخص..

والتفتَ نحو السيد ممتاز وقال:

ـ بعد الآن لن تعمل عندي.. اقطع علاقتك واذهب من هنا فوراً.

كان وجه السيد ممتاز قد عاد إلى طبيعته الأولى.. الوجه المبتسم الودود المحبوب.

ـ أشكرك جزيل الشكر ياسيدي.. إلى اللقاء..

بقيت حائراً جامداً في مكاني.. وقلت له:

ـ هل أستطيع أن أعرف نوعية عملي ياسيدي.. ربما لا أستطيع أن أقوم بالعمل الذي كان يقوم به السيد ممتاز.

ـ أنا بحاجة إلى رجل فيه عقل ومنطق.. المنطق.. قبل كل شيء.. هل فهمت؟. الآن.. هل الماء الموجود في هذه الزجاجة يبلل هذه المنطقة ياسيدي...

ـ لا يبلل يا.

ـ تمام.. هذا ما أريده تماماً... الآن ادخل إلى الغرفة الداخلية واستلم من السيد ممتاز الرأس الحديدي.

ـ على الرأس والعين..

دخلت إلى الغرفة الملاصقة... كان السيد ممتاز يجمع أغراضه الشخصية لقد كان رجلاً بشوشاً ومحباً.. كيف يكون هذا الشخص.. قد هزىء قبل فترة أمام معلمه.؟. اقتربت منه بخجل وقلت:

ـ أنا حزين جداً من أجلك.. ويبدو لي أنك طردت من العمل بسببي.

قال وهو يضحك:

ـ لا يا روحي.. ولماذا يكون طردي بسببك.. لو لم تأتِ أنت لجاء أحد غيرك.

ـ المعذرة.. لو قلت له.. إنه لا يبلل.. ماذا كان سيجري؟

ـ لا أستطيع أن أوضح لك الأمر.. غداً تفهم كل شيء.. لقد استبدل

قبلي أربعة أشخاص وأنا الخامس في هذا العام... لم أستطع أن أتحمل سوى شهرين ونصف.. لأنني أعرف قيمة العمل ومساوىء البطالة. لا أريد أن أخيفك. هيا إلى اللقاء.. ليمنحكم الله الصبر والسلوان..

ـ مع السلامة..

حمل السيد ممتاز محفظته وغادر المنزل... أما أنا فلم أكن أعرف ماذا سأفعل وبأي عمل سأعمل.. جلست خلف الطاولة.. بعد قليل.. صدرت أصوات قوية وصراخ... وضجة من غرفة المعلم.. جاء الحاجب..

ـ إنه يريدك..

كان في غرفة المعلم ثلاثة أشخاص.. يحاولون الاتفاق معه على بيع وشراء شيء ما لم أستطع أن أفهم نوعه وماهيته.

ـ لو صببت زجاجة من الماء هنا. هل تبلل هذه المنطقة؟ أو لا تبللها ياسيدي..

قلت: لا تبلل.

قال: تمام.

والتفت نحو الآخرين:

ـ هل رأيتم.. أنتم كنتم ستأكلون الحق...

قال أحد الأشخاص:

هذا الأمر ليس له علاقة بالبلل ولا بغيره.. لن نعطيك أكثر من خمسة بالمائة.

قال المعلم: المنطق قبل كل شيء.. وأساس كل عمل هو المنطق.

في ذلك اليوم ناداني المعلم إلى غرفته أربع مرات.. وفي كل مرة كان يسأل نفس السؤال.. وفي كل مرة كنت أجيبه.. لا تبلل.

مرَّ اليوم التالي والأسبوع بأكمله هكذا.. كنت أردد كلمة «لا تبلل»

كل يوم أكثر من خمس أو ست مرات.. يوم السبت أعطاني أسبوعيتي مائة ليرة.

كان المعلم قد اقتنع بعد التجارب الخياتية الطويلة بمنطقه هذا «إن المكان الذي تبلله تنكة من الماء.. لا يجوز أن تبلله زجاجة» كان يردد هذا المنطق.. ولا يغيب عن لسانه أبداً.. كمثل شعبي.. أو كفلسفة كبيرة...

ووظيفتي هي تصديق وتأكيد وتثبيت منطقه هذا...

بعد عمل شهر من الزمن.. زادت أسبوعيتي فأصبحت مائة وخمسين ليرة.. لأنني كنت أقوم بعملي على أكمل وجه.. وكان يأخذني معه أينما ذهب..

فإذا ما قابله عمل لايحبه ولا يريد أن يعمل به.. كان على الفور يسأل:

ـ إذا صببنا زجاجة من الماء في هذا المكان تبلله أم لاتبلله ياسيدي؟

وكنت على الفور أجيبه: لا يبلله..

كنت أكرر هذه الكلمة أكثر من ثلاثين مرة في اليوم الواحد.. وهو بدوره يزيد أسبوعيتي.. حتى أصبحت مائتي ليرة. ثم صار يأخذني إلى منزله أيضاً.. ولم أكن أفارقه سوى عند النوم فقط.. فإذا ما طلبت زوجته شيئاً ما.. أو طلب ابنه مبلغاً من المال.. وابنته معطفاً.. أو أي شيء.. كان يقول مباشرة:

ـ أنا لا أعرف لا هذا ولا ذاك.. وبعد أن عشت كل هذه السنوات الطوال كانت النتيجة التي توصلت إليها... إذا كنت أحمل في يدي زجاجة ماء وأفرغتها على الأرض... فهل تبللها أم لا؟ تبللها ياسيدي؟

كنت أصرخ قبل أن يكمل حديثه:

ـ لا تبللها..

في تلك اللحظة.. كان كل شيء على ما يرام بالنسبة للمعلم.. حتى إننا نستطيع أن نقول: إن المياه الجارية تتوقف.. ويكون المعلم على حق في كل الأحوال.. هذا هو المنطق.. وهل المنطق يخطىء في يوم من الأيام؟

كان علي أن أثبت وأكون دعماً له في أموره المادية والمنطقية.. ليخرج دائماً على حق.. ولكي يقتنع أنه على حق.. ولديه ثقة بنفسه. فإنه... يكرر إذا صببنا زجاجة من الماء في مكان واسع هل تبلله أم لا.....

عملت عنده خمسة أشهر متواصلة.. كان عملي محصوراً في ترديد لا تبلل.. أكثر من خمسين مرة في اليوم الواحد.. وكان راتبي الأسبوعي قد وصل إلى مائتين وخمسين ليرة.

حتى ذلك التاريخ لم يكن أحد قد استطاع التحمل أكثر مني في العمل عنده... خمسة شهور متواصلة.. ولكن روحي كانت قد وصلت إلى أنفي..

كنت أتمنى أن أعمل حمالاً... واظل عاطلاً عن العمل لسنوات طويلة. وأن أظل جائعاً حتى الموت.. وكما قلت: لا أحد يستطيع أن يتحمل أكثر مما تحملت. في أحد الأيام كان في صدد بيع وشراء مادة ما.. ويستطيع الاتفاق على ثمانية بالمئة فناداني إليه وسألني..

ـ إذا أفرغت زجاجة من الماء هنا هل تبلله أم لا ياسيدي..

فصرخت في وجهه: تبلله..

ـ ماذا؟

كان قد جمد في مكانه محتاراً.

ـ هل تقول تبلله..؟

ـ تبلله..

كان مقتنعاً بأنه على حق.. بحيث لو أفرغ زجاجة الماء على الأرض..

فلا يبلل الماء المنسكب أرض الغرفة.. كانت صورة وجهه قد تغيرت مثل صورة السيد ممتاز قبل شهور...

ـ هل تبلل أو لا تبلل؟

ـ قلت تبلل.

كان الأشخاص الذين أمام يضحكون:

ـ هل تبلل.

ـ تبلل

ـ لا تبلل

ـ تبلل

ـ لا تبلل

فصرخت بأعلى صوتي:

ـ تبلل ولك.. تبلـ لللل تبلللـل..

خرجت إلى الشارع أتنفس الصعداء.. لكن شخصية المعلم لم تغادر مخيلتي عاماً كاملاً.. أينما ذهبت. في الشوارع في السفن في الحافلات... حتى وأنا نائم.. كنت دائماً أكرر تُبلل.. تُبلل.. لعشرات ومئات المرات في اليوم الواحد... ولم أستطع التخلص من هذا المرض.. إلا بعد أن زاد ترديد كلمات البلل. عن عدم البلل..

○ ○ ○



يجب أن يكون مسلولاً

كما تعلمون فقد تزوجنا.. عندما يتزوج الإنسان ماذا يفعل؟. إذا كنت لا تعرف ماذا تفعل؟ لماذا تزوجت إذاً.. هل من المعقول أن لا أعرف!؟ كنت أعرف ماذا سأفعل وحبة مسك... نعم هكذا.. عندما يتزوج الإنسان. أول عمل يقوم به هو تأمين وشراء الفحم للشتاء.. سألنا الزوجة والأصدقاء..

كيف الوصول إلى الفحم؟. قالوا:

- اوووو.. لا تستطيع أن تشتري.

- ولماذا؟

- هكذا لا تستطيع أن تشتري..

- الله... الله... أليس من حقي أن أشتري فحماً؟..

وكل من كان يقول لي.. لاتستطيع أن تشتري.. كنت أعطيه درساً في الحقوق والواجبات.. أعقد له ندوة فكرية عن الحقوق بشكل عام.

ذهبت إلى مختار حارتنا.. وبعد انتظار دام عشر دقائق لتزول عنه نوبة السعال القوية. سألته:

- أنت من مشجعي أي فريق؟

- الديمقراطيين.

قلت: هاه.. أنا الآخر من مشجعي الديمقراطيين. أنا فلان الفلاني

واسكن في الحي الفلاني.. وأريد أن اشتري فحماً... بما أننا نشجع فريقاً واحداً يجب أن تراعيني.

ـ كيف كنت تشتري الفحم سابقاً؟

ـ لم أشتر سابقاً.. سأشتري اليوم لأول مرة؟

ـ من أين جئت إلى هنا؟

ـ يا سيدي لقد بنيت عشاً سعيداً منذ فترةٍ. وقبل ذلك، كنت أقضي أيامي مساء هنا وصباحاً هناك.. أما الآن فإنني أريد أن أشتري فحماً.. كي تتدفأ الطيور الصغيرة في عشنا السعيد:

ـ أحضر لي أنت وزوجتك كل على انفراد بإخراج قيد من مكان قيدكم الأصلي.

أرسلت برقية.. ورسالة مضمونة بالبريد إلى قريتنا.. فوصلت إخراجات قيدنا بعد شهر ونصف تقريباً... أخذتها إلى المختار، فقال لي:

ـ تقدم باستدعاء إلى مؤسسة الفحم.. تطلب فيه فحماً..

قدمنا الاستدعاء.. فأعطونا استمارة لتُملأ من المختار..

من الذي قال إنني لاأستطيع أن أشتري فحماً؟ أخذ المختار الورقة وملأها بالبيانات المطلوبة، ورجعت إلى مركز توزيع الفحم ثانية... توقيعاً واحدا.. تمام كل شيء على ما يرام.. هل أستطيع أن آخذ فحماً أو لا أستطيع.. انظروا! هذا هو التوقيع لقد أخذناه.. إن شعبنا ياسيدي يريد أن يدفع ماله ليحصل عليه.. ويقول «أعطني طناً من الفحم» هكذا.. بدون أي تعب.

هل هذا الكلام معقول؟... ولك يا أخي هذا المكان ليس دكان بقال. حتى ولو ذهبت إلى بقال.. تنتظر دورك.. هنا مجموعة كبيرة من الموظفين.. ماذا سيفعلون يعني..؟ توقيعٌ من هنا إلى توقيع آخر من مكان

آخر.. أنهيت كل التواقيع .. قال لي الموظف الجالس في آخر طاولة وهو يضحك.

ـ هل تقول فحماً؟

ـ نعم.. فحماً.

عرضت إبتسامة الموظف بعض الشيء.

ـ إذن تريد فحماً أليس كذلك؟

إنني أحب الأشخاص الفرحين.. فقلت بفرح وأنا ابتسم مثله.

ـ نعم.. أريد فحماً.. فحماً.

ربما لاحظتم شيئاً.. ماأكثر الموظفين عندنا، وجوههم عابسة دائماً.. أليس كذلك؟. لا أفهم لماذا يقطب هؤلاء حواجبهم في وجوه المواطنين وهم قائمون على خدمتهم.. بدأ الموظف يقهقه.

ـ تقول فحماً أليس كذلك؟

قلت وأنا أضحك مثله.. فحم نعم.. فحم....

فأطلق قهقهة قوية.. هو يقهقه.. كيف أنا لا أقهقه.. مثله. فطيرت قهقهة أعلى منه.. هو يضحك.. أنا أضحك.. ليضحك الله الجميع..

ـ إذا هاه.. هاه.. فحم.. هاه.. هاه.. هاه..

بدأت أضحك أكثر منه:

ـ فحم.. ها.. هاه.. هاه.... هاه.

نضحك وأيدينا على بطننا.. والدموع تسيل من عينينا...

ـ هل تقول فحماً؟. هاه.. هاه.. هاه..

ـ هه.. هاه.. هاه.. نعم فحماً..

ـ لا يوجد فحم حتى نعطيك.

ـ ماذا.. هل تقول لايوجد؟. إذاً كان علي أن أبكي.. ولم أستطع أن أتمالك نفسي عن الضحك.. هو يضحك.. أنا أضحك.. حتى أغمي علي.. ليرضى الله عنه. أجلسوني على كرسي وأعطوني ماء للشرب.. وبدأوا بصفعي على خدي ووضع الكحول على أنفي. بعد أن عدت بعض الشيء إلى رشدي.. قال:

ـ إننا نعطي بصعوبة للناس القدماء.. وأنت جديد... لن نعطيك فحماً..

ـ طيب: وماذا سيحصل لعشنا في هذا الشتاء القارس؟

ـ هناك شرط واحد نستطيع بموجبه أن نعطيك فحماً.

ـ وماهو هذا الشرط.

ـ إذا كان أحد أفراد أسرتك يشكو من الروماتيزم.. تأتي بتقرير طبي.. ويمكن عندها أن نعطيك ربع طنٍ من الفحم.

عدت إلى البيت مسرعاً وسألتهم:

ـ هل يشكو أحدكم من الروماتيزم.

قالت حماتي: آمان.. هل هناك دواء جديد له... ! والله وحده الذي يعرف ما أعانيه من الروماتيزم خلال العشر سنوات الماضية.

لا تقولوا الحماة.. هل رأيتم؟ حتى روماتيزم بعض الحموات تستطيع الاستفادة منه.. فأخذنا تقريراً من الطبيب يثبت الاصابة بالروماتيزم.

قلت في نفسي إن حصلت على الفحم.. سأحاسب الذين قالوا لي: إنك لا تستطيع أن تشتري فحماً.. سأريهم كلهم.. طبعاً.. فالفحم لايعطى للمعافين مادام هنالك مرضى.. أليس كذلك.. المرضى قبل كل العالم..

ليكن معك روماتيزم.. وخد أنت فحماً..

أخذت التقرير الطبي.. قالوا:

ـ هذا التقرير غير نظامي..

ربما ظنوه مزيفاً.. معهم كل الحق.. لأنه يوجد مئات من المهندسين والأطباء المزيفين. والذين قبضوا عليهم جميعاً. فمن أين لهم أن يعرفوا هذا الطبيب أكان مزيفاً أم غير مزيف.. ولهذا السبب كانوا يطلبون تقريراً من لجنة أطباء.. وبالتأكيد ليست اللجنة مزيفة..

إن أخذ تقرير من اللجنة أصعب بكثير من أخذ الفحم من المؤسسة.

عملت المستحيل.. وحصلت على التقرير بعد مضي شهر من الزمن.. عندما حصلت عليه وحملته في يدي.. تنفست الصعداء.. وأخذتُ شهيقاً طويلاً.. يقولون إنهم لا يعطون الفحم سنرى، أكيد لن يعطوك.. إذا لم تأخذ تقريراً طبياً.

عندما قدمت التقرير:

ـ مع الأسف!؟

ـ لماذا.. هذا هو التقرير الذي طلبتموه.

ـ هذا التقرير.. تقرير روماتيزم..

ـ أنت طلبت مني تقريراً بالروماتيزم... فأتينا لك به.. ولو كنت طلبت مني تقريراً بالسرطان.. والله لكنت أتيت به..

ـ قبل مدة كنا نعطي الفحم.. للتقارير الروماتيزمية.. فأصبح الفحم لا يكفي لكثرة التقارير.. فأبطلنا العمل به.

ـ أي واه.. ولكن كيف سندفىء عشنا العائلي الصغير؟

ـ هل يوجد ضمن أفراد أسرتك مسلولٌ؟ الآن نعطي الفحم للمسلولين..

ـ لا

ـ إذن لا نستطيع أن نخدمك.. من أجل أخذ كمية من الفحم، يجب أن تكون مسلولاً..

انتابني غضب كبير بين هؤلاء الناس المتشائمين... يقولون أنهم لايعطون الفحم... ها إنهم يعطون للمسلولين.. سترون. إذا قدَّر الله وأمضينا هذا الشتاء بصحة وسلام.. سيأخذ جميع المواطنين فحماً.. وبطبيعة الحال فلن يبقى في أسرتنا شخص واحد خال من السل.. جميعنا سنصاب بالسل من البرد.

بما أنكم راغبون في إعطاء هذا الشيء.. فأعطوه لنا قبل أن نصاب بالسل. وغداً عندما نصاب بالسل سيقولون:

ـ كي تأخذ كمية من الفحم يجب أن تموت.. إننا نعطي الفحم فقط للموتى.. حتى تسخن مياههم. قبل الدفن..

ويقولون إنهم لايعطون الفحم.. يا أخي.. هذه معاملة رسمية.. لها أساس وأصول.. إذا لم تمت كيف سيعطونك الفحم؟!! فوالله لو يقع هذا الفحم في يدي.. سأذروه في عيون الناس الذين يقولون لي.. لا تستطيع أن تأخذ فحماً..





قيمة الوقت

نظرت إلى لوحة التعليمات. لقد بقي ثلاث وثلاثون دقيقة حتى تتحرك السفينة. لو وجدت سيارة خدمة لكانت أفضل لي. وإلا فعلي أن أنتظر مدة خمس وأربعين دقيقة. هذه هي الصعوبة الوحيدة سكني في منطقة البوغاز لأنه عندما تتأخر عن إحدى السفن.. يعني أنك ستصل إلى منزلك في أنصاف الليالي. وأنت مرهق إلى أبعد الحدود.. مرات عديدة، كنت أصل إلى المرفأ.. وأنا مبلل بالعرق والدم.. فأجد الأبواب الحديدية قد أغلقت في وجهي.. وفي تلك اللحظة يحسُ الإنسان بأنه ضعيف جداً، لا يعرف ماذا سيفعل. هل سيكفر.. أم يدعو، أم يشتم.. ويحتار الإنسان فيما سيقوله.. وتخرج من فمه كلمات بذيئة ممزوجة بالزبد لا معنى لها على الإطلاق..

بقي ثلاث وثلاثون دقيقة.. إذا وجدت سيارة خدمة على الفور. ربما ألحق الباخرة.

ـ هل نظمت الجدول ياسيد عابدين؟

ـ وقف ولك أخي.. وهل هذا وقت الجدول..

الله.. الله.. جميع الموظفين انصرفوا... ومازال يسألني عن الجدول. قفزت كل ثلاث درجات دفعة واحدة.

ـ سيد عابد دِ دِ دِ دِ ين

ـ ماذا ولك أخي.. إنشاء الله ينزل عابدين إلى أسفل السافلين.

ـ إن السيد المدير يطلبك.

هاه.. !.. وهل وجد المدير الوقت المناسب حتى يطلبني.. عدت أدراجي ودخلت غرفة المدير وأنا أتنفس بصعوبة بالغة.. عندما شاهدني المدير على هذه الحالة ارتبك ولم يدر ماذا يفعل.

ـ ماذا حصل؟. ماذا جرى ياسيد عابدين.

ـ لا شيء أيها السيد المدير..

ـ إن تنفسكم غير طبيعي.

ـ لأنني جريت بسرعة.

ـ تفضلوا...

المدير ينظر إلي وأنا أنظر إليه..

ـ سيادتكم بعثتم بطلبي..

ـ أنا.. لا.. أنا لم أطلبكم.

ـ لقد أعلمني الحاجب بذلك.

ضغط المدير زر الجرس.. فجاء الحاجب.

ـ هل أرسلتك في طلب السيد عابدين:

ـ نعم...

ـ متى...؟

ـ قبل قليل.

ـ نعم.. نعم.. صحيح. لماذا طلبتك.. لم أعد أتذكر.. ولكن توقف بعض الشيء توه... لعن الله كبر السن.. لقد عجزنا ياسيد عابدين لقد عجزنا.

نظرت إلى الساعة بطرف عيني.. ثلاثون دقيقة تفصلني عن تحرك

السفينة. إذا خرجت الآن ووجدت سيارة أستطيع اللحاق بالسفينة.

ـ ايه... ماذا سيحصل ياسيد عابدين.. أربع وعشرون سنة من الخدمة على أبواب الحكومة.. هذا ليس سهلاً.. يا سيد عابدين.. إن الإنسان يفقد عقله.. ولكن ماذا كنت سأقول لك؟. كان شيئاً مهماً.. ولكن ماهو؟. على كل الأحوال.. لن أستطيع التذكر.. إذا تذكرته حتى صباح الغد سأكتبه في مكان ما حتى لا أنساه..

ـ هل أستطيع أن أذهب ياسيدي؟

ـ هل لك عمل مستعجل؟

ـ أود أن ألحق بالسفينة..

ـ ها ها ا ا ا.. هذا أمر آخر .. مع السلامة.

خرجت من الباب مسرعاً.

ـ سيد عابدين.. سيد عابدين..

ـ تفضلوا ياسيدي..

ـ لقد تذكرت.. لماذا طلبتك.. قبل أيام قلت لي بأنك أخذت بعض بيوض «لوغورين» ووضعتها تحت الدجاجة كي تفقسها... من أين اشتريت تلك البيوض..

ـ من المكتب الزراعي ياسيدي؟

ـ وأين هذا المكتب الزراعي؟

ـ في «حلقلي» ياسيدي.

ـ أشكرك جزيل الشكر.. هيا لا تتأخر.. مع السلامة..

نظرت إلى الساعة. باقي سبع وعشرون دقيقة.. ليتني ألقي بنفسي على الطريق.

ـ سيد عابدين.

ـ أفندم..

ـ هل البيوض غالية الثمن؟

ـ خمسون قرشاً ياسيدي.

ـ ليست غالية.. هيا لا تتأخر.. مع السلامة.

كنت أمشي بسرعة..

ـ هيش ولك أحمق..

التفت نحو مصدر الصوت.. وإذا برجل مستلقٍ على الرصيف يكفر ويشتم.. إذا أجبته فلن ألحق السفينة..

ـ امشِ رويداً أيها الجاموس.

إن الرجل على حق.. الزحمة كبيرة.. لا يستطيع الإنسان أن يمشي دون أن يصدم أحداً.

ـ آه ولك فدان آه..

قلتُ في نفسي «الفدان هو أبوك».

طبعاً لست الوحيد الذي أصدم الآخرين... فها هو أحدهم يصدمني فالقاني على الأرض من قوة الصدمة.. نهضت كالبرق دون أن أتفوه بكلمة واحدة. وركضت بسرعة... ولم يبق سوى اثنتين وعشرين دقيقة على تحرك السفينة..

ـ مرت سيارة خدمة.. إلى أين؟

ـ أنت إلى أين ذاهب أيها السيد.

ـ لماذا لا تقول أنت.

ـ إلى «قرة كوي».

ـ تعال غداً حتى آخذك معي..

قلت في نفسي اترك هذا في حال سبيله.

ـ آه ياسيد عابدين آه.. أشكر الله على هذا اللقاء.. إلى أين أنت ولك أخي. انتصب الرجل أمامي كالجدار.. وكان شخصاً لا أعرفه.

ـ لماذا أنت مرتبك هكذا ولك أخي؟

ـ أريد أن ألحق السفينة.

ـ تقول السفينة؟. وأية سفينة؟

ـ سفينة «البوغاز».

ـ إنه مكان قريب.. ظننتك مسافراً إلى البحر الأسود.. ايه.. شوفي شو مافي.. ياعابدين..؟

ـ وماذا سيكون يعني.. الصحة على مايرام.

ـ منذ وقت طويل لم نلتق أليس كذلك؟..

ـ نعم وقت طويل.

ـ هل تتذكر آخر لقاء لنا؟.

ـ والله... على الأغلب.. أين كان ذلك؟

نظرت إلى الساعة باقي ثماني عشرة دقيقة... لقد قطعت مسافة لابأس بها، والرجل لايدعني وشأني.

ـ صداقة العسكرية لها نكهة من نوع خاص ياعابدين..

بمجرد ذكره العسكرية تذكرته.. كان عريفاً ويحسب نفسه مارشالاً..

ـ اسمح لي.. سألحق السفينة..

قلت ذلك ومشيت.

إلى اللقاء ثانية ياعابدين..

ـ إن شاء الله.. وقفت سيارة خدمة ثانية. إلى أين ياأخي.. هل أنت ذاهب إلى قرة كوي؟

لم يعطِ السائق جواباً.

ـ هيش.. انظر خلفك وأمامك ولك.

لم أقل له شيئاً.. وجريت بسرعة:

ـ تاكسي..

توقفت السيارة... ركضت مسافة أخرى نحو السيارة.. تحركت ثانية قبل أن أصل إليها.. توقفت ثانية بعد مسافة عشرين متراً.. سارت مسافة أخرى.. وما أن وضعت يدي على باب السيارة.. حتى تحركت أيضاً وكنت كلما أقف تقف هي الأخرى. كلما أجري.. تتحرك.. حتى لحقتها في إشارة المرور.

ـ ولك أخي هل تسخر مني.

ـ أستغفر الله ياباشا... ولماذا أسخر منك؟

ـ إذا كنت لا تسخر مني.. فلماذا كنت تقف وتتحرك ثم تقف وتتحرك..

ـ وما علاقتك أنت بالأمر ولك.. عندما أريد الوقوف أقف، وعندما أريد التحرك أتحرك.. وهل هذا يخصك أنت.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى المنزل..

ـ كم رقمك؟..

ـ تريد رقمي يافتي.. أم رقم حذائي..

ـ لا.. رقم الساعة الكهربائية.

اشتعل الضوء الأخضر.. فضغط السائق على البنزين... غضبت غضباً شديداً لأنني ركضت خلفه.. فوقفت السيارة مرة أخرى.. فلحقت بها.. وإذا هي مليئة بالركاب.. فتحت فمي وأغمضت عيني..

ـ أي نوع من السائقين أنت ولا.. معك خمسة ركاب وتنادي للركاب.

ـ من أرسل خلفك أيها السيد ومن ناداك؟

ـ ولماذا تقف إذن..؟

ـ أقف.. وأمشي.. وما علاقتك بالموضوع.... الظاهر إنك حسبتني سائق سرفيس ياالله.. وإذا بها سيارة خاصة فاعتذرت منه..

ـ عفواً ياسيدي.. لقد طار عقلي من رأسي لعجلةِ في أمري. باقي ثلاث عشرة دقيقة. على تحرك الباخرة... من أجل ذلك...

بدا إنه رجل طيب.

ـ تفضل نحن أيضاً ذاهبون إلى «قرة كوي».

ـ أرجو أن لا أزعجكم.

ـ تفضلوا.. استغفر الله..

ليرضى الله عنهم .. أركبوني معهم بالسيارة.. كان سبب وقوفهم المتواصل.. هو وجود عطل في المحرك... توقفت السيارة عدة مرات أخرى. نزل الرجل وفتح «المبرد» وبدأ بالتصليح.. لقد انعكس الأمر علي.. فلو نزلت ومشيت.. فيعتبر ذلك عيباً.. فقال الرجل:

ـ السيارة بحاجة إلى دفعٍ.

جلس هو خلف المقود.. وبدأنا نحن بالدفع.. فأصبحت كأنني في بحر من العرق والدم.

كان المحرك يهدر مرة هيرررر. ثم يتوقف ثانية..

دفعنا السيارة أكثر من ثلاثمائة متراً.

ـ المعذرة أيها السادة... أنا على وشك أن أتأخر على السفينة.

وبدأت بالجري بكل قوتي.

ـ هيش...

ـ انظر أمامك...!

ـ ولك.. كلب ابن كلب..

كل شتيمة وكفر لا تساوي عندي ألف «بارة».. كانوا يذرون الكفر والشتائم من خلفي.. وأنا أجري كالعاصفة.. كنت أقطع الزحمة كما يقطع الدلفين البحر..

ـ سيد عابدين.. !

شخص ما كان يناديني.. ولكنني لم ألتفت إليه.

ـ سيد عابدين.. ولك أخي سيد عابدين..

بقي ست دقائق فقط لتحرك السفينة.. وأنا على وشك أن أسقط على الأرض من التعب.

ـ سيد عابدين..!

ربت بيده على كتفي وأنا على رأس الجسر.

ـ عجباً ولك عابدين... إلى أين تهرول هكذا؟..

ـ إلى السفينة.

بقي كلامي في حلقي..

ـ المعذرة.. لقد شبهتكم بأحدهم..

ـ كل شيء وارد ياسيدي.

ـ الشيء الحسن هو أنكم أدرتم وجهكم لي.. لأنكم تشبهون من

الخلف المدعو عابدين الأحمق.. تشبهونه بشكل كنت أنوي أن أعمل لك شيئاً. ياسيدي.. أنتم لا تعرفون عابدين هذا.. إنه قليل الشرف والناموس.. عندي معرض للملاعق..

ـ يا سيدي.. أريد أن ألحق السفينة..

ـ إذن هكذا... المدعو عابدين هذا.. كان ضيفاً عندي في المنزل.

لم أستطع الخلاص من الرجل... كان بديناً إلى حدٍ ما.. وقد امسكني من ساعدي..

ـ لقد سرق هذا القليل الذوق والناموس من معرضي.. طنجرة تابعة للصدر الأعظم. وملعقة تابعة ليوسف باشا..

نظرت إلى الساعة... أي واه.. كانت الباخرة قد تحركت... ولكن شعلة من الأمل كانت لاتزال تراودني.. هي أن بعض البواخر كانت تتأخر بضع دقائق..

ـ أنا أعمل ياسيدي في قسم السجلات «الدفتردارية» واسمي «مفتون» كل من تسأله عني.. يعرفني. إذا احتجت إلى خدمة ما عندنا أنا بانتظارك.. تشربون قهوة مُرَّة عندنا.. ما هو اسمكم ياسيدي؟

ـ عابدين.

ـ ماهذا التشابه الغريب؟. اسمكم أيضاً نفس الاسم.

كان الرجل قد شرَد في فكره بعض الشيء.. فاستفدت من هذه اللحظة وتخلصت منه. وفي الوقت الذي كان يناديني باسمي كنت قد نزلت درجات المرفأ.

اوووه.. الشكر لله.. ما تزال السفينة في مكانها.. فرميت بنفسي مثل كيس خيش على أرضية السفينة.

لقد نلت من السباب والشتائم والكفر الشيء الكثير ولكن... وصلت السفينة..

نظرت إلى الركاب.. ما من أحد منهم في عجلة من أمره... الجميع يدخلون السفينة رويداً رويداً.. مرت خمس دقائق.. وعشر دقائق.. السفينة لاتتحرك.

صعدت ثانية إلى المرفأ وسألت أحد الموظفين.

ـ هل تغيرت ساعات الانطلاق..

ـ لا... الدوام الصيفي هكذا. سيتغير بعد خمسة عشر يوماً.

ـ إذن لماذا.. لا تتحرك السفينة؟. ما هذه اللامبالاة؟... ما هذه الرذالة.. الجميع لديهم من الأشغال والأعمال الشيء الكثير.. بالأصل نحن هكذا.. لا نعطي قيمة للوقت أبداً.. ليس عشر دقائق فقط حتى ولا عشرة أيام لا نعطيها قيمة. هل تعرف قيمة الوقت والزمن؟

لم أترك شيئاً إلا وذكرته.. وسألت نفسي هذا السؤال.. إذن لماذا لا نتطور؟. لأننا لا نعطي أهمية للوقت.. كان الموظف يحاول أن يقول شيئاً.. ولكنني لم أكن أترك له فرصة للكلام أبداً. كانت مجموعة كبيرة من الناس قد أحاطت بي.. وكلما زادت الزحمة.. كان صوتي يعلو أكثر.

ـ هل تعرفون لماذا تتقدم البلدان الأوروبية.. لأنهم ياسيدي يعرفون قيمة الثانية الواحدة.

كان بعض الأشخاص يوافقونني على رأيي وصاروا يرفعون أصواتهم مدافعين عني.

ـ كلامك صحيح ياسيدي.

ـ إذا كان الحال عندنا هكذا......

حتى أنهم كانوا يقاطعون كلامي أحياناً بالتصفيق.

ـ هل رأيتم باخرة تتأخر عن موعد انطلاقها عشرين دقيقة.

كان الجميع يصادقون على ما أقول.

ـ إنها الرذالة بعينها.

ـ هذا غير معقول أبداً.

ـ والله عيب ولك أخي.

قال موظف المرفأ: إن ساعتك هي المتأخرة.. الساعة تجاوزت السادسة وسبع وثلاثين دقيقة.

ـ لا.. إن الساعة هي السادسة وخمس وثلاثون دقيقة.

قال أحدهم:

ـ خطأ.. إن ساعتي مضبوطة على المذياع.. ليست خمساً وثلاثين بل أربعاً وثلاثين دقيقة.

أجابه أحدهم:

ـ إن ساعتك هي المتأخرة. الساعة الآن تجاوزت السادسة وسبع وثلاثين دقيقة.

بدأت المشادات الكلامية. أما أنا فقلت:

ـ أن التوقيت لم يتغير.. والساعة ليست مخطئة.. طيب لماذا لا تتحرك السفينة؟

قال الموظف:

ـ ولماذا تتحرك؟. باقي عشر دقائق على تحركها..

أحسست بالاستغراب فجأة.

ـ والله.. والله.. أنا كل مساء أتحرك من.....

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

- إلى بستان الباشا.

بدأ الركاب الذين كانوا يساندونني... بالضحك.. قال الموظف:

- ياسيد.. ستذهب إلى المرفأ الآخر.. فإن سفينتك قد تحركت منذ نصف ساعة. لقد دخلت المرفأ بالخطأ.. كانوا يصرخون من خلفي..

- لقد أخطأ الرجل بالبوصلة...!

- أووووووه.. ما هذا ولك...!

- يووووو.. دجاجة مجنونة..

○ ○ ○

٩

يحيا الإفلاس «الطفر»

البنك يعطي منزلاً.. البنك يعطي بناية... البنك يعطي مالاً. البنك يعطي بطاقة للسياحة. البنك يعطي إكرامية. البنك يعطي على مدى العمر رواتب شهرية دائمة. البنك يعطي كل شيء.. وما الشيء الذي لا تعطيه هذه البنوك؟ يكفي أن تحصل من مكان ما على مائة ليرة فقط.. اذهب وأودعها البنك.. لنقل أن البنك لن يعطيك أي شيء.. فماذا تخسر يعني.؟ مالك في مكانه والفائدة مستمرة.

أما أنا فلم أستطع في يوم من الأيام أن أجمع مائة ليرة.. واضعها في أحد البنوك.. أشد على أسناني.. أتعب وأتعب وما أن يصل المبلغ إلى ثمانين أو تسعين ليرة.. فتظهر لي علة أو مشكلة. ويضيع هذا المبلغ كالهباء المنثور بين ليلة وضحاها.. قبل أن يصير مائة ليرة..

وكأن هذه الأموال قد اتفقت فيما بينها وبعناد.. على أن لايصبح في جيبي مائة ليرة قطعة واحدة. هم عاندوا.. وأنا عاندتهم. وفي نهاية المطاف حصلت على تلك القطعة الورقية من فئة المائة ليرة التركية.. وخوفاً من ضياعها ثانية أسرعت إلى البنك لأضعها هناك وأتخلص منها قبل أن تتخلص مني. ولكن البنوك أغلقت في ذلك المساء لأنني وصلت متأخراً.

كنت أحسب أن هذا المبلغ البسيط سيضيع مني لدى هبوب أضعف نسمة هواء أو ظهور علةٍ ما. كنت خائفاً عليه ولهذا شددت قبضتي..

وحسب المثل القائل. «اللي بيجيه ولد بعد انتظار طويل شو بيعمل فيه» أنا كذلك ماذا أفعل بالمبلغ.. هذه هي الحقيقة.. ولماذا أكابر على نفسي؟

وضعت المبلغ تحت وسادتي.. ونمتُ.. ولكني لم أستطع أن أغفو ولا بأي شكل من الأشكال... شو (صار معي مائة ليرة شقفة واحدة)!! وبدأت أضع أحكاماً بيني وبين نفسي.

ـ لا شيء يستطيع مقاومة العزم والثبات. إذا أراد الإنسان أن يفعل شيئاً فسيفعله... ويعمل المستحيل لذلك. ولا ضرورة لأن أقول. إن راتبي قليل.. أو أن الحياة الاقتصادية صعبة.. غلاء المعيشة.. كل هذه ليست سوى أقاويل فارغة.. انظر كيف قررت أن أجمع مائة ليرة وفعلتها... إذا أردت أن أجمع مائتين.. أستطيع وخمسمائة كذلك.. وربما ألف وعشرة آلاف..

هكذا.. بدأت أحلام اليقظة تدغدغ أفكاري.. الألف تصبح عشرة آلاف. والعشرة آلاف تصير مائة ألف... ومائة ألف تصبح مائة مليون..

بدأت أدخل الأصفار إلى جانب الرقم.. وفي عتمة الليل.. أعدها أي الأصفار ثلاثة ثلاثة. مائة مليون.. مليار واحد.. عشرة مليارات.. مائة مليار نعم، لا يستطيع أي شيء أن يثنيني عن عزمي.

قديماً.. كانوا يكتبون على صفحات الجرائد عن حياة أصحاب الملايين.. أما الآن فأصبحت بعدد ليرات «الفراطة». مليونيراً.. ثم أصبحت ملياردير اً.. ثم بعد ذلك تريليونيراً.. هل يوجد حتى الآن تريليونير على وجه الأرض.. لا.. هكذا.. أنا أصبحت تريليونيراً. إن أبي أيضاً يستطيع أن يصير مليونيراً وملياردير اً.. ولكن المهم أن يكون المرء تريليونيراً ولَك تريليون.. شو يعني.. يعني أمام الواحد... أفندم.

لا أستطيع أن أجمع أفكاري... بدأت أخطط في الظلام.. واحد.. ثم ارسم الأصفار أمام الواحد واحداً بعد الآخر... صفر واحد.. اثنان ثلاثة..

خمسة أصفار عشرة أصفار... أحد عشر. اثني عشر صفراً.. تمام.. اثني عشر صفراً..

هذا أمام الواحد.. أما إذا كانوا أمام رقم اثنين فسيكونون تريليونين. بسيط جداً أرفع يدي من تحت اللحاف وارسم صفراً آخر على شكل دائرة... فيصير ثلاثة مائة تريليون.. إن الأصفار بقيت معلقة في الظلام كمصابيح الإعلانات. بعضها يهرب وبعضها يسقط.. عندما تهرب.. أجمعها ثانية وأضعها في أمكنتها.. فتهرب ثانية. أمسكها ثانية وثالثة.. ولهذا السبب كانوا يقولون لنا. «إن جمع المال سهل جداً ولكن الصعوبة في أن تحتفظ به» هذه حقيقة.. لم أستطع أن أمسك بالأصفار دائماً.. إنها تهرب ككرات البلياردو وتتدحرج. لن يستطيعوا الإفلات من يدي أبداً.. مهما حاولوا الهرب. أو إذا لم أقرر أن أكون غنياً؟.

جلست على الفراش وأشعلت سيجارة.. أراقب أصفاري بمتعة كبيرة. ماشاء الله كلها.. مستديرة تشبه شفاه وخصر وسيقان وصدر امرأة جميلة. ما ألذ أن يكون الإنسان غنياً.

الشمس تشرق.. أمدُ يدي تحت الوسادة.. يجب أن يكون هناك المائة ليرة التي جمعتها.. أسرعت نحو البنك مباشرة.. الوقت باكر جداً البنوك والمحلات لم تفتح أبوابها بعد. انتظرت أمام باب البنك. صادفت صديقاً.

- ما هذا.. ماذا جرى لك؟

- لا... لا... لا شيء أبداً.

- عيناك محمرتان.. ووجهك أصفر.

- لأنني لم أنم هذه الليلة.. كان عندي عمل كثير.

كيف أتخلص منه قبل أن يعرف أنني سأضع مالاً في البنك.. فُتح الباب.. دخلت بخجل وخوف.. آمان ياربي.. ما أكبر وما أجمل هذا المكان؟!

الأزهار.. والمزهريات.. نساء جميلات.. ورجال أنيقون.. وعلى السقف ثريات كبيرة.. ظننت أنني دخلت إلى أحد القصور. في الداخل أكثر من عشرين موظفاً. المكان يلمع لمعاناً.. والموبيليا من النوع الفاخر..

في أعماقي خوف ما.. إذن كل هذه الأشياء الثمينة واللوكس.. من أموالي.. هؤلاء الأشخاص سيعيشون وسيترفون على حسابي.. هذا غير معقول أبداً.. لن أعطيهم هذا المبلغ.. حتى يعيشوا هم.

ـ تفضلوا ياسيدي.. هل تأمرون شيئاً؟

كم هم لطفاء هؤلاء الذين يعملون في البنوك.. لم أستطع أن أتراجع أمام هذا الذوق الرفيع، واللطف العظيم. فأعطيت المال. أنهى الموظف البشوش عملي خلال دقيقتين فقط. وقدَّم إلى جانب دفتر البنك. دفتراً جميلاً كهدية.

في نفس اليوم. كان أصدقائي يعلقون على تصرفاتي قائلين:

ـ تنام وأنت واقف ولك أخي..

لم أكترث بهم.. عند الظهر قال لي أحد الزملاء:

ـ هيا نذهب إلى المطعم...

قلت:

ـ لست جائعاً...

علماً أنني لم آكل شيئاً في الصباح وكما يقولون: «المال لايزيد الربح فقط بل يُطيل العمر». عند المساء أكلت كعكة كي أسكت معدتي. وأويت إلى الفراش باكراً.. لأنني لم أنم الليلة الماضية أبداً.. وما أن وضعت رأسي على الوسادة. حتى بدأت الأصفار تتراقص أمامي.. نفس الليلة الماضية بدأت أحلام اليقظة.. تدغدغني..

آه إنه صفر يطير كالفراشة اللماعة ويحط أمام المائة.. فأصبحت ألفاً..

عشرة آلاف.. مائة ألف.. مليوناً.. أصفار وأصفار وأصفار.. في كل حركة من أصبعي أصوغ صفراً وأضعه في مكانه.. وأقول لهم.

ـ ولك أيتها الأصفار توقفي.. أنا لا أحب العيش في الخيالات.. يجب أن يعيش الإنسان متزناً في هذه الحياة.. كل صفر إلى مكانه إلى الأمام... سر...

بدأت الأصفار تتراجع إلى أماكنها خائفة.

كنت أعطي أصفاري درساً في النظام المنضم.. كأنني قائد دورة.

ـ نسقاً على صف يساراً تراصف.

تقف الأصفار إلى جانب بعضها البعض.

ـ خطوة نحو الأمام سر..

راب.. راب. راب..

ـ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. ألف.. مائة ألف.. مليون.

أعطي لأصفاري استراحة مدتها عشر دقائق.

يصرخون: دمتم سيدي.

أشرقت الشمس. ومازلت أعطي لأصفاري تعليمات خاصة. وخرجت من المنزل وأنا في ذهول تام: لقد أقتادتني قدماي إلى البنك دون أن أشعر بذلك.. إحساس ما في أعماقي.. كان يؤكد لي.. بأن البنك على وشك الإفلاس.. أو أن أحدهم سيحمله على كتفه ويهرب به. وتهرب أموالي معه.

أمضيت ذلك اليوم أيضاً على قطعة خبز مع قطعة جبن صغيرة.. وكان النوم يثقل أجفاني.. نمتُ مبكراً.. الأصفار لاتغادر مخيلتي في الظلام. إن أغمضت عيني أم لم أغمضهما. كانت دائماً ترقص المامبو.

وتراءى لي: أن جاءتني من البنك إكرامية وهي عبارة عن بناية..

أجرتها لأحدهم لمدة خمس سنوات وقبضت الإيجار سلفاً... وأنا مازلت أسكنُ في بيت رخيص.. عندها تذكرت مباشرة.. أنا أسكن منزلاً.. وأدفع ايجاراً شهرياً قدره مائة وعشرون ليرة.. أليس هذا حراماً.. يجب أن أنتقل صباح الغد إلى مكان رخيص.. سأجد غرفة ما في إحدى الحارات الشعبية في ضاحية المدينة. بمبلغ عشرين ليرة.. ويبقى لي في الشهر مائة ليرة.. أودعها البنك. وذلك يعني أنني سأوفر في العام الواحد ألفاً ومائتي ليرة في عشر سنوات اثنتا عشرة ألفاً.. في مائة عام، مائة ألف ليرة. كل هذا المبلغ سيأتيني من الهواء.. هل هذا وقت الإسراف؟.

أشرقت الشمس.. ومررت ثانية أمام البنك. كل أصدقائي ابتعدوا عني.. آمان فليبتعدوا عني.. تخلصت من طلب الشاي والقهوة لهم وهذا أفضل بكثير.. اتصلت بحبيبتي هاتفياً.. قلت لها.

ـ لن أحضر هذا اليوم.

كنا على وشك الزواج.. أما الآن فقد تراجعت عن فكرة الزواج. فمنذ أن وضعت المال في المصرف.. لا أريد أن أراها.. إن الزواج باب للإسراف.

شعرت أن جفنيَّ يطبقان على حجرة كبيرة. وما أن وضعت رأسي فوق الوسادة.. كي أنام بعض الوقت.. فإذا بالأصفار تصطف أمامي كالنساء الجميلات.. النوم ليس في يدي.

ولا أنكر عليكم بأنني فكرت أن آخذ حبوباً منومة.. كان أحد الزملاء يحمل بعضاً منها.. أعطاني حبة.. لأنه أشفق على حالي.. حتى حبة المنوم لم تؤثر فيَّ تلك الليلة أيضاً. أصبحت غنياً.. بشكل عجيب... وإذا بي أصاب بالإفلاس بين ليلة وضحاها.. طارت المليارات فجأة من يدي. كنت على وشك أن انتحر.. حسب عادة أصحاب الملايين.. عندما تذكرت المائة ليرة التي كانت في المصرف.. تراجعت عن فكرة

الانتحار.. فأصبحت غنياً للمرة الثانية.. كأنني جمعت الأموال الموجودة في كل أنحاء العالم.. ولم يبق «متليك» واحد مع أحد.. جاء الصحفيون وأجروا معي «حديثاً صحفياً».

- كيف صرتم أغنياء؟ كيف حالفكم النجاح هكذا؟

- من العمل الدؤوب... لم أكن أملك قرشاً واحداً..

فأقمت لهم ندوة حول المال وجمعه. ثم بدأت بمساعدة الفقراء والمحتاجين. أقدم للأولاد المتفوقين بمناسبة العيد جورباً هدية.. وأعطي للعمال عشاء خفيفاً. وللفلاحين الذين أخذت أراضيهم؟ بعض حفنات من التراب. لم أترك خيراً إلا وفعلته.. وبدأ الجميع يقولون عني: إنه محب للخير».

قضيت تلك الليلة أيضاً بعمل الخير. كنت أقف على قدماي بصعوبة بالغة من الجوع والنعاس... ذهبت مباشرة إلى البنك.. ورميت المحفظة أمام الموظف.

- ارجع لي المائة ليرة التي عندكم.

سألني.. هل تريدونها كلها..

- كلها.. كلها.. صرخت هكذا.. حاجة بقى ولك.. لقد ابتعدت عن الأصدقاء والأحباب بسبب المال.. ابتعدت عن إنسانيتي.. عن صحتي عن سعادتي.. أقسم بالله... ! سأعمل.. فوق المال.

لم أستطع أن أتمالك نفسي من عصبيتي.. أحاط بي جميع موظفي البنك يطيبون خاطري ويهدئون روعي.

- سنعيد لك مالك ياسيدي...

أخذت نقودي.. وكان في جيبي ثمانون ليرة.. أسرعت إلى مطعم قريب، أعطني.. من هذا ومن هذا.. ومن هذا. ومن هناك ذهبت إلى

أحدث فندق في المدينة.. ونمت ثلاثة أيام وثلاث ليالي متواصلة.. أووووه «ما أحلاها من حياة» لم يبق معي قرش واحد.

لحظتها فكرت بحالة الأغنياء وتعبهم وبما يعانونه.. فشكرت الله على حالي. وعرفت ما يعاني منه الأغنياء.. قلة النوم والجوع والخوف من الإفلاس.. ومن السارقين.

وليحيا الإفلاس «الطفر».



١٥
البحث

أوقع ظهور أربع إصابات من المرض خلال أسبوع واحد بين العاملين بالصحة العامة والمسؤولين حيرة كبيرة.. ومما زاد الحيرة والارتباك، ظهور ثلاث إصابات دفعة واحدة. في عدة أنحاء من المدينة. بدأت الاتصالات وكتابة التقارير ونقل الأخبار ترد تباعاً.

سأل المحافظ:

ـ ما نوع هذا المرض؟

قال الخبير معتمداً على خبرته..

ـ إنه مرض خطير جداً..

كان المرض ينتشر يوماً بعد يوم.. فقد بلغ عدد الاصابات ثلاثين إصابة خلال شهر واحد. فسارع المسؤولون من العاملين في الصحة إلى عقد اجتماع طارئ، وخلال الجلسة قال رئيس الأطباء:

ـ ماهي معلوماتكم عن المرض.

ردَّ الطبيب الاختصاصي بأمراض النساء والتوليد.

ـ إنه مرض خطير جداً.

قال المحافظ:

ـ فهمنا أنه خطير.. ولكن ماهي خطورته؟

قال طبيب النسائية:

ـ نعم إنه خطير جداً ومميت بعض الأحيان.. وإذا ما فتك بإنسان فلا خلاص منه أبداً..

ـ إذن.. يقتل.. ها...

ـ نعم ياسيدي إنه يقتل.. وبشكل مريع جداً..

بعد انتشار المرض. فتح أحد الأطباء المختصين والذي لم يتجاوز عمره الخامسة والأربعين بعد.. الموسوعة الطبية وقرأ عن المرض مقدار نصف صفحة.

ـ لو تسمحوا لي أن أعطيكم فكرة عامة عن المرض. لأنني قدمت بحثاً طويلاً عنه عندما كنت أختص في أمريكا.

نظر الطبيب الأخصائي النسائي العجوز إلى الطبيب الشاب نظرة قاسية وقال:

ـ ألم تذهب إلى أمريكا كي تختص في شؤون الجهاز البولي.

كان الطبيب العجوز الذئب بكلامه هذا، قد وجه إلى الطبيب الشاب طعنة قاسية.

ـ هذا لايجوز أبداً.. إن الوطن يرسله إلى أمريكا كي يختص بالبول وتوابعه.. ويذهب هو ليعمل بأشياء أخرى..!

قال الوالي الذي لم يأخذ الجواب الكافي حول المرض وخطورته:

ـ بالله عليكم.. أفهموني.. أرجوكم؟

بدأ الطبيب بالتوضيح:

ـ إن لهذا المرض ثلاثة أشكال وأنواع.. وينتقل إلى الإنسان عن طريق البحر والذباب.. تنمو جراثيمه وتتكاثر في مياه الصرف الصحي.. فعندما تصب هذه المياه في البحر.. فالسابحون..

قال الوالي بتشاؤم:

ـ إذن لن نستطيع أن نقضي عليه؟. كيف علينا أن نجابه هذا المرض؟. وهذه المدينة محاطة بالبحر من كل الجهات. والنفايات تصب فيه.

ثم رفع النظارات عن عينيه بضيق.. وكأنه يقول للأطباء: أوجدوا طريقة للخلاص من هذا المرض.. قال أحد الأطباء.

ـ طيب.. إذا كان هذا المرض ينتشر عن طريق الصرف الصحي... والبحر. فهذا ليس بجديد علينا، لأن الصرف الصحي يصب في البحر منذ سنوات طويلة جداً.

ونحن لم نسمع باسم هذا المرض إلا منذ وقت قصير.

وضع الطبيب الشاب. تاريخ هذا المرض أمام المسؤولين..

ـ ظهر هذا المرض أولاً في أمريكا.. ثم انتقل إلى أوروبة. وكما هو معروف ومع الأسف أن علاقتنا بأمريكا وطيدة.. لقد مضى على انتقال هذا المرض إلينا منذ عشر سنوات، لأن كل شيء أصبح يأتينا من أمريكا..

وبما أن الحال هكذا..

كان الوالي قد فهم..

ـ نعم.. بعد هذه العلاقة الوطيدة... طيب.. ماذا سيحدث الآن؟ أليس له دواء؟.

قال الطبيب الذي يُعرِّف على المرض.. من الموسوعة الطبية.

ـ لا.. حتى الآن لم يكتشف له دواء.

غضب الوالي:

ـ يعني سنجلس هكذا مكتوفي الأيدي.

نظر الأطباء إلى بعضهم البعض. فقال أكبرهم سناً:

ـ لنؤسس هيئة للبحث في هذا المجال..

قوبل هذا الاقتراح بالموافقة. وتمَّ تشكيل هيئة من أحد عشر شخصاً.

كان أحد أعضاء الهيئة قد درس في إحدى جامعات أمريكا اختصاص «علم الجراثيم». وفي الوقت نفسه كان رئيساً لفريق كرة السلة في تلك الجامعة... فأعطى صورة عن وطننا وبلدنا، وأزال عنه صورة الوحشية والبربرية ولباس القلبق «والقاووق» أو أحدهما.. والثاني كان طبيباً بيطرياً والثالث ضابط متقاعد من قوات الجندرمة. أما الباقون فكانوا من اختصاصات مختلفة منهم الكيميائيون والصيدلانيون. وآخرون من ذوي الخبرة في الأمراض.

من أولى مهام هذه الهيئة الكشف عن جرثومة المرض ومكان نموها وكيفية انتشارها وانتقالها... وأعراض المرض وإيجاد اللقاح والدواء اللازم، ثم طرق الوقاية منه.

قبل انتهاء الاجتماع بقليل تكلم رئيس الجلسة وقال:

ـ أيها الزملاء.. تقع على عاتقكم الآن مسؤولية كبيرة جداً.

قال أحد الأطباء:

ـ نعم.. يجب أن نعمل ليل نهار حتى نوقف انتشار هذا المرض.

ـ هناك شيء أهم من هذه المسألة بكثير.. وماهو ذلك الشيء هل تعرفون؟ السرية.. عملنا يجب أن يكون سرياً جداً.. يجب أن لا يسمع أحد به.

قال أحد الأطباء:

ـ نعم.. نعم.. لقد فهمنا ماتريده منا.. إنكم تريدون أن لايكشف الأجانب بحثنا هذا.... أليس كذلك؟

ـ لا.. ليسمع به الأجانب والغرباء.. بالأصل أنا لست مقتنعاً.... وليس لي أمل في هذه الهيئة ولا بعملها ولا بالنتائج التي ستتوصل إليها.

ومع هذا.. يجب أن لا نبقى مكتوفي الأيدي.. ولهذا السبب.. ابحثوا في الأمر بدلاً من أن تظلوا جالسين....

قال أحد أفراد الهيئة وهو يسأل الرئيس:

ـ إذا لم نحجب هذا الأمر أو البحث عن الأجانب. عمن سنحجبه ياسيدي؟

ـ عن جماعتنا.. إياكم وأن يسمع الشعب بهذا البحث أو المرض.. أنتم لا تعرفون ولا تفهمون نفسية الشعب مثلي. إذا ما انتشر بين الشعب أن مرضاً معدياً أصاب بلدنا.. فكل الشعب سيمرض. المصاب بنزلة برد أو صداع، ومن لايستطيع دفع الإيجار. والمرأة التي على خلاف دائم مع زوجها. ومن هجر حبيبته. ومن أقعده الروماتيزم. ومن رسب في صفه. كل هؤلاء سيظنون أنهم مصابون بهذا المرض.. فتسود الفوضى والارتباك والخوف. ولا نستطيع أن نجد لها حلاً.. ولهذا يجب أن لا يسمع أحد أن المرض ينتقل إلى الإنسان عن طريق الذباب أو البحر.

توزعت الهيئة بعد أن أخذت أمراً قاطعاً من الرئيس في البحث عن المرض بسرية تامة. ولكن القيامة بدأت عندما نشرت صفحات الجرائد صباح اليوم التالي. أن عشرين إصابة جديدة ظهرت في يوم واحد.. كان هذا المرض وحشاً مفترساً جديداً في وطننا.. إن ميكروب هذا المرض اصغر من واحد من خمسين ألف من الميكروم، وقد كتبت الصحف بكثير من التفصيل.. ذكرت البحر والصرف الصحي... ووو....

وكان أول عمل للهيئة العلمية الباحثة والمسؤولين الإداريين، هو الرد المباشر على كلام الجرائد «لايوجد أي أمراض عندنا.. وما هو هذا المرض؟ إن بحارنا تنبض بشفافية كقلب فتاة في الثامنة عشر من عمرها.

طلب الصحفيون التحدث مع السيد الوالي حول الموضوع...

قالوا: سمعنا أنه يوجد في المشافي أكثر من عشرين مريضاً؟

الوالي: عشرون مريضاً.. هذا طبيعي جداً.. حتى أقل من الطبيعي.

- يعني عندما كان المرض غير موجود هل كنا غير طبيعيين.

غضب الوالي:

- يعني إن الإدارة القديمة كانت تعجبكم أكثر منا.. بكل تأكيد عشرون إصابة حالة عادية وطبيعية جداً.. وكما تعرفون أن أمريكا هي القوة العظمى الأولى في العالم من جميع النواحي.. يصيب هذا المرض أكثر من مائة وعشرين ألف إنسان. ورقم الاصابات عندنا صغير جداً يكاد لا يذكر وأقل من الطبيعي بكثير.

توجه الوالي مباشرة بعد انتهاء مقابلته مع الصحفيين إلى الهيئة العلمية الطبية الباحثة.. كانت الهيئة قد اجتمعت قبل لحظات.. وهو مكفهر الوجه مقطب الجبين.

- أيها السادة.. قلت لكم بالأمس حافظوا على سرية هذا الأمر.. وقلت لكم. لا أريد لأي خبر أن يتسرب منكم. ومع هذا فإن الجرائد كتبت عن كل شيء.. الآن ظهر لكم عمل جديد. وهو البحث والكشف عن الخائن الذي سرب هذا الخبر.

إن هذه المهمة الجديدة أهم بكثير من البحث والكشف عن المرض ومسبباته.

بدأت الهيئة باندفاع كبير على كشف الخائن الذي سرب الخبر إلى الجرائد. كل واحد كان يشك بالآخر. كان هذا البحث مرهقاً ومتعباً جداً.

ومن جهة أخرى. كانت الضغوط تنهال عليهم للكشف عن المذنب.

في أحد الأيام قال رئيس الهيئة (المختص بعلم الجراثيم) الذي كان يغني البحث بهمة ونشاط وسرعة.

ـ لقد وجدته.. أيها الزملاء.. لقد وجدته..

سأله الجميع دفعة واحدة.

ـ ماالذي وجدته.. هل وجدت الميكروب؟

ـ لا.. وجدت المذنب.. الذي سرب الأسرار.

ـ أي خائن هذا... من هو؟

قال:

ـ المرض.. نعم المرض.. لأننا لم نخبرهم بأن مرضهم مرضٌ سريٌّ.. وأنه يجب أن لا يقال شيء عنه للآخرين.

قال الطبيب العجوز:

ـ نعم.. لنكتب تقريرنا مباشرة.

فكتب تقريراً جميلاً جداً.

...... المقام العالي..

«إن الهيئة العلمية الطبية الباحثة، والمشكلة للبحث عن المرض الجديد الذي ظهر في بلادنا وهو مرض «معدٍ» وبعد بحث شاق وطويل ومرهق دام شهرين متواصلين.. توصلت الهيئة إلى أن الذين أصيبوا بالمرض هم أنفسهم أذاعوا سر المرض إلى الخارج. مع فائق الاحترام».

انحلت الهيئة العلمية الباحثة الطبية بعد تقديم هذا التقرير وبذلك تكون قد أنهت أعمالها.



١١

سنذهب إلى القمر

هذا لا يحدث في أمريكا فقط. بل وعندنا أيضاً.. وكما نقرأ في الصحف أنه يوجد في أمريكا «جماعة الأصابع الستة». «وجمعية الأرجل الكبيرة فوق النمرة ٤٧». «ونادي الأزواج الذين يطالهم القتل والضرب يومياً من زوجاتهم». وجمعيات ووحدات أخرى.... نحن ماذا ينقصنا عنهم؟ فقد تشكلت عندنا «جمعية الذاهبين إلى القمر». هذه الجمعية مناسبة لي شخصياً.. لأنني لا أستطيع الذهاب إلى أنقرة وأزمير. فكيف الذهاب إلى باريس ونيويورك، وأطول خط مررت وأمر به طوال حياتي خط.. شيشلي.. سيركجي.. بحافلة الترام.. بما أنني لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان على سطح الأرض.. على الأقل أذهب بسياحة إلى القمر.. ولهذا السبب أصبحت عضواً في «جمعية الذاهبين إلى القمر». وصلت إلى المنزل والفرحة تغمرني أملاً بالذهاب إلى القمر.. أكلت من الطعام ماطاب وماكثر.. وتمددت قرب المدفأة ورحت في ثبات عميق.. وكأن الدم واللحم والعظام الموجودين تحت الجلد قد زالوا، وحلَّ مكانهم غاز خفيف كدخان التبن. والبالونات التي تنقطع حبالها فتطير وترتفع.. أنا الآخر هكذا بدأت بالارتفاع والطيران.

ارتفعت وارتفعت.. حتى ارتفعت فوق أسعار الحطب والفحم وبيوت الإيجار وبعد ذلك وصلت إلى ما فوق البورصة السوداء.

ارتفع.. إن مكانك ليس هاهنا.

المجيء إلى الحياة ليس بتلك المعجزة.

عندما وصلت إلى ارتفاع معين.. بدأ الغاز الموجود في جسمي بالتسرب من الأماكن المثقوبة والمحروقة. إنه من الخطر أن يهبط المرء من هذا العلو الشاهق.. كالسكران /إقبال/ عندما ينزل من عرشه.. فكلما أُغلق ثقباً وأدفع ديناً ينفتح في جسمي ثقب آخر. ويتراكم دين آخر.

فبدأت أصرخ بأعلى صوتي: النجدة... النجدة.

ـ شد على أسنانك بعض الشيء.. إنك على وشك أن تصل إلى القمر.

ـ الشد على أسناني سهل جداً. لكن الثقوب توسعت. وبتُ لا أستطيع التحمل.. أغيثوني.. أينما كنتم.. وإلا فإنني سأقع..

ـ هنا دولة القمر.. إننا نرسل لك من قسم المعونات والمساعدات شوالين من دخان البواخر..

وصلت المساعدة.. ارتفعت فجأة.. ولم أجد نفسي إلا وأنا على سطح القمر.

أحاط بي أناس يشبهوننا تماماً.

ـ أهلاً بكم.

حملوني على شيء عجيب وغريب لم أرَ مثله في حياتي. وبلمح البصر وصلنا مدينة كبيرة. فدخلنا إلى بناية عالية كتب عليها «جامعة القمر». كلما حاولت أن أفتح عيني كي أتحدث. كانوا يقولون لي.

ـ هنا ليست أرضكم.. لا وقت لدينا لنمضيه بالحديث والكلام الفارغ.

ثم دخلنا مدرجاً كبيراً.. كملاعب كرة القدم عندنا.. المدرّجات

الأربعة مكتظة بالمشاهدين كما هو عندنا.. ولكنهم لايصرخون.. كانوا يجلسون بهدوء وسكون.. فأحضروني إلى المنصة.. وبدأ البروفسور بإعطاء الدرس بينما الحضور يستمعون إليه باهتمام.

ـ كما أوضحت لكم في الدرس الماضي.. فإنكم تشاهدون الآن واحداً من حيوانات الأرض.. سأعود وأكرر لكم كيف تشكلت الأرض.. وكيف ظهرت الحياة عليها. إن حيوانات الأرض يظنون أن القمر قد انفصل عن أرضهم. والحقيقة عكس ذلك. قبل خمسين ألف سنة ضوئية. ظهر على وجه القمر بعض المجانين والمعقدين والانفعاليين.. وتكاثروا بسرعة جنونية. فامتلأت بهم جميع الأبنية التي أقمناها كعصفورية لهم.. كان هؤلاء المجانين يؤخرون الإنتاج يوماً بعد يوم. والأهم والأخطر من ذلك كله، أنهم كانوا يفسدون أخلاق أولادنا.. ويفسدون الأشخاص العاديين العاقلين أيضاً. ومهما قبضنا عليهم وسجناهم ونفيناهم لم نستطع اصلاحهم. فألقينا بهم فوق رؤوس الجبال وفي أعماق الصحارى.. فبنوا لأنفسهم معسكرات.. وكل ذلك لم يؤثر عليهم.

وأول ما فكرنا به هو جمع هؤلاء.. وإرسالهم إلى مكان بعيد جداً عنا. فسلخنا أسوأ قطعة من القمر وقذفنا بها إلى أعماق الكون: فصارت الأرض التي نعرفها. أي أننا رمينا بكل المجانين إلى هناك. ومعنى ذلك أن الأرض ليست سوى عصفورية كبيرة للمجانين.. ومنذ ذلك الوقت قطعنا عنهم كل المعونات والمساعدات والاتصالات. ولكي يعيش المجانين على وجه الأرض. كان ينقصهم الهواء الفاسد ولهذا السبب. فإن كوكب الأرض محاط بالهواء والغازات. وهم الآن لا يستطيعون العيش بدون هواء.

عندها.. بدأت القبضات تمتد نحوي من المقاعد الأمامية والقريبة،

والذين كانوا يستمعون حتى تلك اللحظة باهتمام بالغ وسكون.. بدأوا يصرخون:

ـ ميكروب.. ميكروب..

وأضاف البرفسور:

ـ في الوقت الذي رمينا فيه المجانين إلى الأرض.. كنا ألقينا معهم خطأ بعض العقلاء. فأولادهم يظهرون لنا أحياناً هنا وهناك من سطح الأرض.. غير أن المجانين هناك يضعون هؤلاء العقلاء في المصحات العقلية. ويغلقون بوجههم سبل الحياة.

ومع ازدياد انفعالات المستمعين. بدأوا يصرخون.

ـ لنشنقه.

ـ لنقطعه.

وتعكر الجو فجأة.. فرموا بأنفسهم فوقي.. ومدت الأيادي إلى رقبتي. كان النفس الأخير على وشك أن يخرج. وإذا بابني يحركني بشدة ويقول:

ـ بابا.. أنت تشخر يابابا.

فتحت عيوني وإذ بي لا أزال قرب المدفأة.. نظرت إلى جسمي.. وتنفست طويلاً عدة مرات.

ـ أووووه ه ه .. ما أجمل الحياة...!

ooo

١٢

ثانية ورشة الخياطة

ـ انظر يا زوجي العزيز.. هل أعجبك لباسي؟

ـ جميل.. جميل جداً.. ولكنكِ ما كنت بحاجة إلى هذا اللباس.

ـ كيف لا أحتاجه.. هل عندي طقم حتى أخرج به مثل الناس.

ـ ولكن يا ضناي.. ألم تشتري قبل أيام طقماً أصفر مخططاً.

ـ وهل يُلبس ذلك في هذا الموسم يا حبي..

ـ هناك الطقم الأحمر...

ـ آمان.. لم يعد دارجاً في هذه الأيام.

ـ ألم تخيطي طقماً رملياً مائلاً للبيج.. ها..

ـ كل لباس وله زمنه.. إنك لاتفهمني.

ـ لا.. ياسكرتي.. أنا أفهمك.. ولكن المسألة..

ـ أنا لا أشتري مثل غيري أقمشة غالية يا روحي.. فمثلاً.. انظر هل تقدر ثمن متر هذا القماش.

ـ لا أدري.

ـ قل شيئاً.

فكر الرجل بعض الوقت. ولمس القماش برؤوس أصابعه.. كان بين الحين والآخر ينظر إلى الواجهات في محلات الأقمشة. فتذكر أن هذا القماش يشبه إلى حد ما قماشاً شاهده على الواجهة وكان سعر المتر

الواحد منه ثلاثاً وأربعين ليرة. زوجته لا تستطيع أن تشتري بهذا الغلاء.

فسألها: عشرون ليرة أليس كذلك؟

ضحكت المرأة:

ـ ولك رجال.. من أين لي المال؟. هل لي عين أدفع للمتر الواحد عشرين ليرة.. هذه قطعة متران ونصف.. لقد دفعت ثمنها ثماني عشرة ليرة وأنت تعرفني جيداً.. كيف أساوم عندما أشتري.

قبَّل الرجل وجه زوجته.. وأصبح يفتخر بها... ومنذ ذلك اليوم صار يمتدحها.. في كل مناسبة.. وفي الدائرة أمام زملائه.

فقال له صديقه «مليح»: زوجتي أيضاً تتمسك كثيراً مثل زوجتك، كل واحد كان يتكلم بدوره.. مرة هذا ومرة ذاك.. وحتى نهاية الدوام حيث خرجا من الدائرة.. عند المساء وفي الطريق وقفا أمام واجهة محل أقمشة.

ـ انظر يا عزيزي مليح.. أترى هذا القماش. الذي كتب عليه سعر المتر منه تسع وأربعون ليرة. هل تراه فقد اشترت زوجتي قطعة مشابهة لهذا القماش طولها متران ونصف بمبلغ ثماني عشرة ليرة.

ـ وزوجتي أيضاً.. كانت قد اشترت من نفس القماش لم أعد أتذكر، ربما اشترت المتر الواحد إما بخمس ليرات أو أكثر لم أعد أذكر.. إن زوجتي تساوم بشكل غير معقول.

ـ وزوجتي أيضاً.

ـ ولكن يا أخي والله نحن محظوظان من جهة النساء؟.

ـ لقد وُفقنا بنساء عاقلات..

ـ وإلا كيف كنا سنعيش بهذا الراتب الصغير؟

عندما وصل إلى البيت.. بدأ يقبل زوجته وكأنه تزوجها منذ وقت قصير.. ولكنه فوجىء عندما رآها مرتدية ثوباً جديداً أخضر فيه أقلام عريضة.. فقطب حاجبيه.. وبدت عليه علائم الانزعاج فقالت له زوجته:

ـ مالك يا عزيزي.. لماذا قطبت حاجبيك.. إنه بإثنتي عشرة ليرة فقط. هل هذا المبلغ أفضل من زوجتك.

ـ لا.. لا.. ولكن يا ضناي.. أجرة خياطته.. من يدري كم دفعت للخياط.

ـ آ.. آ.. عجباً ألا تدري أن في حارتنا فتاة اسمها «نباهات» عند المساء تعمل في الفن.. أعطيها ليرتين ونصف. فتخيطه لي وهي ترقص من الفرح.

كان الرجل يتفاخر بزوجته وبعملها.

ـ ألم أصبح جميلة؟

ـ أنت جميلة جداً يا حياتي.

اجتمع الموظفون حول جواد.. وهو يقص عليهم قصة ذهابه اليومي إلى ذلك المكان بكلام معسول لذيذ:

ـ إن ذوق المراقبة غير شكل يا عزيزي.. لايشبه بقية الأشياء يا للنساء ولَك أخي.. أطوال وأطوال.. أشكال وأشكال.. ألوان وألوان. ومن جميع الأعمار.. بالأمس راقبت امرأة عجوزاً في الستين أو أكثر من عمرها لا أبادلها بفتاة في الثامنة عشرة من عمرها.. بالنسبة لنا أفضل نوع هو هذا النوع.. لأنه بهذا الراتب لا نستطيع أن نحتمل أكثر من عدة أيام. والله أفضل من الزواج.

كان الجميع يصغون إلى جواد ولعابهم يسيل.. وكان جواد يأخذ كل

يوم أحد زملائه إلى هناك.. ولكنهم لا يتكلمون بصراحة مثل جوادٍ، وما كانوا يقولون أو يعترفون بأنهم ذهبوا إلى هناك.. حتى أن السيد حسام الدين الذي سيتقاعد هذا العام، ذهب أيضاً إلى هناك وبعد عودته بقي مريضاً مدة أسبوع كامل.. وكان الجميع يسخرون منه دائماً قال مليح لزميله:

- ما رأيك لو نذهب نحن أيضاً إلى هناك.

- والله لو سمعوا عنا أننا قمنا بهذا العمل لأصبحنا مهزلة على كل لسان.

في ذلك المساء خرج الصديقان مع جواد.. قال لهما جواد:

- إنه مكان مقبول جداً، فهو مؤسسة عادية ومعترف بها. يقولون بأن النساء ليس لديهن علم بذلك.. ولكنهن يكذبن.. فلو لم يكن يعرفن، هل يبقين هكذا عاريات مدة طويلة من الزمن؟

- كم ليرة سندفع؟

- حسب الثقب الذي ستنظر منه، فهو كالثقوب التي في الطابق العلوي يسمونها «بارادي» المراقبة من هناك ثلاث ليرات.. أنا أراقب من هناك عند نهاية كل شهر. شيء جميل أن تنبطح على الأرض طولاً وعرضاً وتضع عينيك على الثقب. ومع هذا لا ترى إلا الشيء القليل من جسم المرأة، أفضل المراقبة في الغرف الأرضية هناك ترى النساء كالمرايا. ويسمون تلك الثقوب «الكراسي الفخمة».. في بداية كل شهر أراقب عدة مرات من تلك الثقوب أي من «الكراسي الفخمة». ومن كثرة النظر إلى السقف تبقى رقبتي يابسة مدة أسبوع كامل.. وهناك الغرف الجانبية. هناك البلكون.. الذي يعتبر أفضل مكان.. تدفع عشر ليرات عن كل ساعة. مرة واحدة فقط راقبت من البلكون.. كما يوجد أيضاً الدرجة الأولى التي لا يدخل إليها سوى الأغنياء والرجال المعمرين.. وقد رتبوا

ذلك المحل على مبدأ المرايا.. حيث تستطيع وأنت في مكانك أن تراقب كل الأطراف.. وكيفما شئت..

ـ وهل يقطعون تذاكر؟

ـ أمعقول هذا الكلام.. هل هو استاد مدحت باشا حتى يقطعوا تذاكر. يقولون إن في أوروبا أماكن من هذا النوع يقطعون فيها التذاكر.. حتى أنك تستطيع أن تأخذ بطاقة اشتراك.. نحن لم نتوصل بعد إلى هذا المقام.. كل شيء على مستوانا.

صعد الأصدقاء الثلاثة درج البناية، كان الدليل جواد يمشي أمامهم، والاثنان كانا يسيران خلفه من شدة الخجل.

قال جواد:

ـ لا داعي للخوف أبداً.. لهذا المكان بابان.. الرجال يدخلون من جهة والنساء من الجهة الثانية.

فتح جواد الباب الذي فيه لوحة كتب عليها «مرة ثانية ورشة الخياطة». فظهر خلف الباب ثقب للمراقبة.. ثم فتح الباب ثانية.

ـ تفضلوا..

دخل الرجال الثلاثة.. فسألت المرأة التي فتحت الباب:

ـ هل تريدون درجة ممتازة.. لا يوجد أمكنة في البلكون حتى نهار الأحد.. إذا كنتم تريدون «الكرسي الفخم» عندنا مكان واحد شاغر فقط.

قال مليح: هامساً لجواد:

ـ ليكن رخيصاً.

قال جواد: ليكن ثلاث «بارادي».

صعدوا الدرج المقام داخل الغرفة.. كان ذلك المكان واسعاً قرب

السقف. وكان مجموعة من الرجال منبطحين على الأرض وعيونهم على الثقوب.. من كثرة انفعالهم لم يلاحظوا قدوم الرجال الثلاثة:

رفعت المرأة أرجل ثلاثة من المنبطحين قائلة:

- هيا.. لقد انتهى وقتكم..

قال أحدهم وهو يسوي هندامه:

- ماذا لو تتركيني خمس دقائق أخرى..

قالت المرأة دون شفقة ولا رحمة:

- هيا انتهت المدة.

فتمدد الأصدقاء الثلاثة الجدد على الأرض وركزوا عيونهم على الثقوب. وكانوا يسمعون أيضاً المحادثات التي تجري داخل الغرفة.

- أريد مانتو.. بيج مريح وواسع سبور.

- تكرمي يا سكرة.

- من هذا الموديل.

- آه ياسكرتي.. هذا غالي الثمن جداً. ثمن المتر الواحد منه تسعون ليرة، ومع أجرة الخياطة.. سبعمائة ليرة من أجل خاطرك الجميل، ولهذا يجب أن تأتي إلى هنا طيلة عشرة أيام.. كل يوم نصف ساعة على الأقل.. للقياس..

- ولكنه غالي الثمن.

- لا والله كيف تقولين غالي الثمن، انظري إنه مفصل على جسمك كأنه خيط من أجلك... من أجل ذلك.. ولن أرض بهذا السعر لأحد غيرك أبداً.

ـ طيب.

ـ اخلعي يا ضناي.

ـ ......

ـ اخلعي... اخلعي..

ـ ......

ـ اخلعي سوتيانك أيضاً.. وإلا فلن أستطيع أن آخذ قياسك على أكمل وجه. هكذا.. ماشاء الله.. ما هذا الصدر؟. لهذا الطرف.. إن جسمك رائع جداً..

ـ أشكرك جداً.. سآتي غداً إلى «البروفا».

دخلت امرأة أخرى.

ـ إن تنورتك جاهزة يا ضناي.. هيا اخلعي يا حلوتي..

ـ ......

ـ اخلعي جواربك أيضاً.

ـ ......

ـ إنها مفصلة على جسمك تماماً.. يالها من تنورة.. هذه الخطوط فوق اللون السماوي.. موضة هذا العام.. هل أعجبتك يا عزيزتي..

ـ شكراً..

عندما وصل البيت في المساء.. قفزت زوجته على رقبته وقبلته.

ـ كيف هي تنورتي الجديدة.. إن اللون السماوي موديل هذا العام.. هل تليق بي؟ ولكن لماذا تعبس وجهك هكذا؟ أنت تعرف كيف أساوم.. ساومت وأنا أقاتل.. إنها قطعة.. متران ونصف.. بكم

أخذتها.. هل تستطيع أن تخمن؟ ستندهش عندما أقول لك ذلك؟ ألن تندهش... والله ستندهش..؟. أربع عشرة ليرة آمان اضحك... بعض الشيء.. وأعطيت «لنباهات» عشر ليرات. فخاطتها لي وهي ترقص من الفرح.. أليست جميلة.. هل لاقت بزوجتك؟. أنت لا تحبني والله.

قال الرجل وهو يئنُ: أحبك.



١٣

المحاسب

بين يدي وثيقتان رسميتان تثبتان ثقافتي العالية وهما سلاحي، لأنني أجهل أية صنعة غيرها.. إحدى هاتين الوثيقتين.. دبلوم في الأدب التركي من كلية الآداب. والثانية دبلوم في الفلسفة من نفس الكلية. وفي العصر الذي ظهر فيه ورق التواليت في البورصة السوداء.. فإن هاتين الوثيقتين اللتين تساويان الباب في مساحتهما.. لاتساويان ما يعادل ملىء شوال كبير من الأوراق النقدية الروسية.

وكأن هاتين الوثيقتين الرسميتين لا تكفيانني.. حماقة، فقد حصلت أيضاً على شهادة الدكتوراه في الأدب التركي.

إن أغلب الموجودين في كليتي.. إما فتيات دخلن هذا الفرع للبحث عن عريس، أو أخريات جئن من أجل الثقافة، أو لتمضية الوقت فقط، أو من الشباب الأغنياء الذين لا حاجة بهم للعمل وبالأحرى لكسب المال من أجل المعيشة. وكان هناك مجموعة من أمثالي يظنون أنهم سيصبحون في يوم من الأيام فلاسفة عظماء أو شعراء مشهورين.. ولكن عندما قرأت السيرة التاريخية لعظماء الفلاسفة خلال عقود التاريخ المتتالية ـ وتاريخ الأدب.. لم أجد أن واحداً عظيماً منهم أو من الكتاب والأدباء.. قد درس الأدب أو الفلسفة على الإطلاق حتى إنهم لم يدخلوا الجامعة في حياتهم أبداً.. وعندما توصلت إلى هذه المعرفة. كنت قد أصبحت على شفا هاوية البطالة والعطالة والحرمان..

فأينما دخلت وطلبت عملاً.. كنت أقابل بالضحك والاستهزاء... أي أن معرفتي الحقيقية والكبيرة «لكانت» «ودوركهايم» و«برغسون» لم تنفعني في إيجاد عمل أعيش منه.

بقيت فترة أعطي صورة للشباب المثقف الذين لا يفهمهم أحدَ.. بحذاء مرقع.. شهوراً وشهوراً.. كما أن معرفتي الكبيرة لـ سبينوزا لم تقدم لي لقمة واحدة أسدُّ بها رمقي.

أنا وأمثالي بقينا هكذا في الوسط.. ما من أحد ينظر إلى وجوهنا.. أما الباقون فقد وجدوا العمل مباشرة.. وبدأوا باستلام دفاتر المحاسبة.. ومحاسبة الضرائب.. إن المردود الضريبي قد أفادنا بعض الشيء. مع أننا كنا لا نعلم مدى استفادة الدولة من الضريبة. ومع هذا فقد كان الراتب كراتب الحجاب في هذا العمل.. ولكننا كنا نتميز عن الحجاب.. فهم كانوا يأخذون البخشيش (الإكرامية).. أما نحن.. فهذا الأمر محرَّم علينا كوننا مثقفين على مستوى كبير جداً.

اشتريت كثيراً من كتب المحاسبة.. ومنها قانون الضريبة العام.. وبدأت بالعمل.. تعلمت كيفية مسك الدفتر الكبير.. وقانون الموظفين.. وتعلمت قانون أصول المحاسبة الأمريكية.

في أحد الأيام بينما كنت أسير فوق الجسر كان أحدهم يصرخ دائماً.

ـ تم إعلان أسماء الحرفيين الذين أشهروا إفلاسهم من جراء الضريبة.. لقد ظهر القانون الجديد..

دُهشت كثيراً.. الحرفي يقضي عليه نتيجة للضريبة.. إنه أمر غريب جداً دفعت خمسة وعشرين قرشاً وأخذت الورقة التي تتضمن القانون.

في ذلك اليوم كنت قد ذهبت إلى عدة أماكن بحثاً عن عملٍ. آخر محل دخلته.. سألني الرجل الموجود هناك.

ـ من أية مدرسة تخرجت؟.

ـ من قسم الأدب التركي ودبلوم الفلسفة.

ـ نعم.. نعم...

استغرب الرجل في بادىء الأمر.. ثم ضحك.. واجلسني قربه... وكأن الرجل ليس له عمل على الإطلاق فطلب مني أن أقرأ قصائد غزلية للشاعر «نديم» وقصائد للشاعر «الفضولي» و«الباقي».. وكان يضحك دائماً وفي نهاية الأمر قال لي:

ـ سأرسلك إلى مكان؟

ـ شكراً لك.

أعطاني عنواناً.

ـ في هذا العنوان امرأة تملك مكتباً تجارياً. اذهب إليها فتجد لك عملاً.

ذهبت إلى العنوان الذي أعطاني إياه.. كان ذلك المكان متميزاً.. النساء واقفات نصف عاريات تقريباً.. وبثياب النوم الحريرية، وقد ازدحمت مجموعة من الرجال.. أمام باب المنزل الذي كنت سأطلب منه العمل.. كان غاصاً جداً بالرجال.. ربما أن هذه المرأة تعمل بشكل جيد.. وشغلها على ما يرام.. فرحت كثيراً. فدخلت بين الزحمة حتى وصلت الباب.. ونظرت إلى الداخل من خلال فتحة قبضة الباب الحديدي للمنزل.. كان المكان كالحمام النسائي.. نساء كثيرات نصف عاريات يجلسن على الأرائك وعلى درجات السلم.. طرقت الباب.. ففتحوا.. دخلت.. عندما شاهدت مجموعة النساء هذه.. وهن ألوان وألوان وأحجام وأحجام وأطوال وأطوال.. أحسست بالخجل الشديد.. واحترت.. ماذا سأفعل الآن؟. فقادتني امرأة من الوزن الثقيل إلى داخل الصالون.. وما أن جلست.. حتى جلست في حضني مباشرة.. مع أنه يوجد كراسي كثيرة فارغة في الصالون.

أنا هكذا منذ ولادتي فيَّ بعض الحماقة والغباء!!

قلت: أنا لا تعجبني الميوعة ياخانم؟

ـ طيب يا روحي إذا لم أعجبك تأتيك واحدة غيري.

ثم قالت لإحدى النساء الصغيرات

ـ تعالي يا ليلى هذا الرجل يريدك.

جاءت المرأة الصغيرة وأحاطت عنقي بساعدها فدفعتها بقوة: وقلت:

ـ أنا لا أريد لا ليلى ولاغيرها....

ـ طيب من تريد.

ـ أريد مدام فوفو.

فبدأت النسوة بالضحك.. حتى وقعن على الأرض.

بعد وقت ليس بقصير قالت إحدى السمراوات:

ـ هذه موديل آخر على ما أعتقد.

ـ إن مدام فوفو.. هي صاحبة هذا البيت يا روحي.

ـ أعرف ذلك.. جئت كي أراها..

وبدأن بالضحك مرة أخرى.. وقلن دفعة واحدة.

ـ ماما.. ياماما.. ماما.

فخرجت من إحدى الغرف امرأة تزن أكثر من مائة وخمسين كيلو غراماً.. كل فخذٍ من أفخاذها أكبر مني حجماً.. خدودها تدلت على صدرها ونهداها وصلا إلى بطنها، وبطنها يغطي نصف ساقيها.. وقد تجاوزت الثانية والستين خريفاً أو أكثر.. كانت تمشي وهي تجر قدميها جراً. أما ساعداها.. فقد غطتهما أساور الذهب. وأصابعها امتلأت بالخواتم اللماعة حتى أن أسنانها من الذهب أيضاً. وفي أذنيها مجموعة كبيرة من الأقراط. فرحت كثيراً لكوني سأعمل عند معلمة غنية...

فسألَتْ: ماذا هناك يا بنات؟

كان صوتها غليظاً وخانقاً.. كمعاوني السرافيس ضاربي العصي.

أشارت الفتيات عليَّ وكن قد وقعن من الضحك.

- يقول بأنه يريد أن يراك. قلنا له.. خليك معنا.. لم يرض.. وتمسك بقراره.. يريد أن يراك.

اقتربت المعلمة بغضب نحوي.. وقالت بصوت وكأنه صفير إحدى البواخر..

- ألا تخجل من نفسك عندما تطلبني؟

- المعذرة.. ولكن ماذا في هذا الأمر حتى أخجل.. أنت إنسانة وأنا إنسان.. الآن عندنا ديمقراطية.. إذا أراد الإنسان مقابله زعيم أحد الأحزاب حتى..

فصرخت الفتيات دفعة واحدة..

- توه.. توه.. قليل التربية...

قلتُ للمعلمة:

- لا تزعلي من كلامي.. عندك كل هؤلاء الفتيات.. أنا لم أحضر إلى هنا لألعب وأتمايع.. جئت إلى هنا كي أعمل..

قالت مدام فوفو:

- هل جئت إلى هنا كي تعمل معي؟

- طبعاً.. إذا قبلت بذلك.. ثم إنني لم أحضر إلى هنا من ذاتي أرسلني إليك أحد معارفي.

سألتني مدام فوفو:

- تعرف من.. ومن الذي أرسلك إلي.

ظننتها أنها تمتحنني كي أعمل عندها.

- أعرف الكثيرين جداً من أيام الإغريق. إلى يومنا هذا.. من سقراط إلى أرسطو.. إلى برتراند راسل.. أعرف الجميع..

- كلهم غرباء أليس كذلك؟

- أعرف من المحليين أيضاً. أعرف نديم.. نابي.. باقي.. أحمد العدس..

زاهد الجزمجي.. الشيخ غالب.

أحسست أن مدام فوفو قد لانت بعض الشيء.

ـ أنا تركت العمل منذ وقت طويل يا روحي.. خذ إحدى الفتيات واعمل بها ماشئت..

فهمت كل شيء.. بما أن مدام فوفو قد كبرت.. فقد تركت إدارة العمل للفتيات.

قلت: بالنسبة لي يجب أن ألتقي مع الجميع دفعة واحدة.

فاقتربت مني واحدة على وجهها آثار الجدري.

عندما قلت: إنني جئت إلى هنا من أجل الموضوع.

ـ ولك حبيبي.. هنا لا تستطيع أن تعمل شيئاً هيا إلى الغرفة..

قلت: ولماذا.. لا نلتقي هنا؟

ـ آ آ.. أمام الجميع هكذا..

ـ ولكن ليس هذا الشيء بالسر.

كانت الفتيات تضحكن على كل كلمة تصدر مني. قالت مدام فوفو وهي تشخر:

ـ هذا لايكون.. اصعدوا إلى الغرفة.

عندما كنا نصعد السلم. قالت مدام فوفو:

ـ عندنا.. دفع المال سلفاً.

إذن إنها مؤسسة موثوقة..

قلت: أشكرك جزيل الشكر يامدام.. أنا أقبض بعد العمل... يامدام.. أنا واثق منك يامدام..

هنا صدرت قهقهة كبيرة أخرى عن الفتيات.. قالت مدام فوفو:

ـ عشر ليرات.

ـ هذا جميل جداً.. أنا أرضى أن أعمل بالساعة..

كانت الفتيات قد وقعن على الأرض من كثرة الضحك. قالت مدام فوفو:

ـ كيفما شئت.. هذا عائد إليك شخصياً..

قلت في نفسي إذا كنت سأعمل على الأقل في اليوم ثمان ساعات.. فسأربح أكثر من ثمانين ليرة يومياً.. شيء غير معقول أبداً.. إن أصدقائي لايربحون هذا المبلغ في الأسبوع الواحد.

قلت: إذا كانت هناك ضرورة سأعمل في اليوم عشر ساعات.. حتى وأعمل في الليل. كادت الفتيات يختنقن من القهقهات العالية. بعد أن تفحصتني مدام فوفو جيداً.. قالت:

ـ هذا الشيء غير ظاهر عليك.. ولكن تعال معي لنرَ.

كانت مدام فوفو قد فهمت مقدار ذكائي ولهذا قررت أن تلتقي بي شخصياً.

صعدنا الدرج.. كنت أظن أننا كنا ذاهبين إلى مكتبها ولكنها كانت تأخذني إلى إحدى غرف النوم..

ـ يا سيدتي.. إن الموضوع الذي سنتناقش فيه.

ـ اترك الموضوع.

ـ أنا أزعجك من أجل العمل.

ـ لا أحد ينزعج من هذا العمل يا روحي.. ما هذا الإزعاج الذي تتحدث عنه.. هيا يبدو أن هذه السيدة ستأخذني إلى الغرفة كي تفحصني جسدياً.. إذا كنت لائقاً لهذا العمل أم لا...

قلت لها: لا أشكو من أي مرض يامدام فوفو.. إذا كنتم تريدون أحضر لك تقريراً طبياً.

ـ أنا الأخرى لا أشكو من مرض.. هيا اخلع ملابسك لنرى.

تمددت مدام فوفو على السرير.. وكأنها ملكة قد أخذت الدنيا كلها

بين ساقيها فبدأت أقص عليها..

ـ كما تعلمين يا سيدتي.. إن جميع الحرفيين تابعين ومكلفين بالنسبة لضريبة الدخل. أنا محاسب. سأمسك عنك كل معاملاتك.. أسجل لك الصادر والوارد على الدفتر على أكمل وجه..

تحركت مدام فوفو بسرعة البرق بجسدها الثقيل نحوي.. وماهي إلا لحظات حتى فاجأتني بضربة قوية.. كالتي كان يستعملها الفاتحون في العصور الوسطى لفتح باب القلاع يسمونها «رأس كبش» هذه الضربة جاءت وسط ظهري. لم أجد نفسي إلا ومرمياً تحت الدرج.

ومع هذا فإن مدام فوفو طيبة القلب جداً فقد قبلتني للشغل وأمسكت دفاترها في المنزل، ورأسمالها كثير وكبير وعملها جيد وتعطيني كل شهر مائة وخمسين ليرة.

أعمل من الساعة الثامنة صباحاً.. حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً.. بعض المعاملات لا تدخلها على السجلات. وهذا طبيعي جداً.. لأن أكبر المكاتب تعمل نفس الشيء. وهناك فتيات يعملن.. سراً عندها.

الأعمال كثيرة جداً ولم يعد لدي الوقت الكافي لأنظر في كتب الأدب والفلسفة أبداً. ولكن بعض الأحيان أقرأ توصيات مولانا.. وبعضاً من شعر نديم.

وفي الليل كنت أقرأ لروسي، وآدم سميث، وكانت، وديكارت، وشهادتي الجامعية. معلقة على الجدار فوق سريري.

ومع هذا فمدام فوفو ليست امرأة طيبة والله.. كل يوم يمر تحت يدي عشرات بل مئات المعاملات.. ولا استنشق شيئاً منها. وكما يقولون. «الذي يقطع العسل يلحس إصبعه». مازلت حتى الآن ألحس كفي.



١٤

درس في الأخلاق

كانوا في أحد الصفوف يخصصون حصة لدروس الأخلاق للطلبة.

ـ إن الأخلاق شيء جميل يا أولاد.. إذا كان أحد الأشخاص دون أخلاق. فهذا يعني نهاية الحياة.

ـ أستاذي.

ـ ماذا هناك؟

ـ لو تنظر إلى «جتين» اسم علم.

ـ اخرسوا.. يجب أن يكون الإنسان صاحب أخلاق. إن إيجابيات الأخلاق كثيرة، لا تعد ولا تحصى.. وإذا كان الإنسان خالياً من الأخلاق فعلى الدنيا السلام.

ـ ماذا يحصل يا أستاذ؟

ـ ماذا يكون يعني.. كل الناس يقولون عنه عديم الأخلاق.. إن انعدام الأخلاق شيء بغيض جداً وقذر جداً.. ولهذا السبب يجب أن يتحلى المرء بالأخلاق الحسنة.

إن إيجابيات الأخلاق واضحة. لذا نتعلمها على أساس أنها دروس مفيدة.

أليس كذلك؟. لو كانت الأخلاق سلوكاً سيئاً لما علمناكم إياها؟...

ـ ماذا قلنا..

ـ قلتم: شيء جميل.

ـ نعم إن الأخلاق شيء جميل.. وإذا سألتموني عن سبب جمالها. أقول إن الرجال العظماء قالوا عن الأخلاق بأنها فعل حسن.

ـ يا أستاذ.

ـ ماذا أيضاً... وما الذي حصل ثانية؟.

ـ قولوا شيئاً «إن الأثان» تلبطني من الخلف..

ـ اسكتوا يا أولاد.. انظروا سأقرأ لكم شيئاً عن الأخلاق من هذا الكتاب «إن الأخلاق هي عدم مخالفة العادات والأعراف في المجتمعات.. وهي كذلك لا تتعارض مع أي قانون من القوانين».. هل فهمتم؟ إنكم ستفعلون كل ما يفعله الكبار والأكثرية في المجتمع... قف يا «صوناي» ما هي السوق السوداء:

ـ إنها شيء حسن يا أستاذ.

ـ هل تقول شيء حسن؟

ـ طبعاً لأنها مغايرة لقوانين الأخلاق يا أستاذ.. فأي إنسان يخالف أكثرية المجتمع يكون دون أخلاق، وبما أن أكثر الناس أخلاقاً يعملون بالبورصة السوداء، فهي شيء حسن.

ـ ما هذا الكلام؟

ـ والله هكذا يا أستاذ.. إن القصاب، والبقال، وبائع الفحم، وبائع الفواكه، كلهم يعملون بالبورصة السوداء، نعرف شخصاً هو صديق قديم للعائلة وثري جداً.. يقول عنه والدي أنه يعمل بالبورصة السوداء.. قبل أيام ذهبنا ضيوفاً إلى منزلهم... قال لي ذلك الرجل «إنك تستطيع أن تفعل وتربح كل شيء بالأخلاق يابني» لذلك قررت عندما أكبر أن تكون أخلاقي عظيمة. أمتلك البنايات وغيرها.. لم أجد أحداً مثل أبي قليل الأخلاق..

ـ اسكت.. هل يقول الإنسان عن أبيه هكذا.

ـ طبعاً سأقول: إنه لا يستطيع أن يدفع آجار المنزل حتى.

ـ اجلس مكانك! أيها الأولاد.. لا تخرجوا في أي يوم من الأيام عن قوانين الأخلاق.

ـ يا أستاذ..

ـ تكلم يا«أرغون»..

ـ لي عمّ يا أستاذ.. يردد هذا الكلام دائماً «لم تجتمع ياقتي من وراء هذا الذي يسمى الأخلاق».. أنا سأكون بلا أخلاق..

ـ اسكت.. إذا أصبح الإنسان دون أخلاق.. ماذا سيقولون عنه؟ هيا.. قولوا جميعاً.. ماذا يقولون؟

ـ يقولون دون أخلاقٍ.

ـ هل رأيتم.. حتى إذا ملك الإنسان الملايين فماذا تفيده إذا كان دون أخلاقٍ.

ـ إنه يرتاح يا أستاذ.

ـ يجب أن يكون ضمير ووجدان الإنسان مرتاحاً.. إن العظماء كانوا يتحلون بالأخلاق العظيمة.

ـ كان ذلك في القديم يا أستاذ.. في حيِّنا رجل غني.. يملك ثلاث سيارات كاديلاك.. إنه ملك القطن ثم أنه....

ـ أنا أقول لكم الناس العظماء.. يعني العظيم في علمه وفي فكره، وفي فنه فمثلاً سقراط...

ـ أنا أعرف سقراط يا أستاذ.

ـ طبعاً ستعرفه..

ـ إنه يملك دكاناً في حيِّنا.. منظف للثياب.. ولكنه ليس غنياً كبيراً. فيه صفات أخلاقية أكثر من اللازم.

ـ أنا أتحدث لكم عن سقراط اليوناني الفيلسوف الكبير.. وسقراط أرسطو.. غاليله.. كونوا مثلهم أخلاقيين.

ـ يا أستاذ يعني هل هذا السقراط الذي تحدثت عنه هو أخلاقي أكثر من السيد أحمد تاجر الحديد في حينا.

ـ يا أولاد... إن الأخلاق ليس لها علاقة لا بالمال ولا بالجاه.. إن التاريخ يروي لنا عن بعض الأخلاقيين الذين كانوا يموتون من الجوع ولا يضعون على أخلاقهم نقطة سوداء واحدة.

ـ يا أستاذ يعني إن هذه الأخلاق ليست بأمر جيد على الأغلب.

ـ إنها شيء جميل وحسن جداً، إن الإنسان الأخلاقي يتحدث عن الذي يعرفه بكل صراحة.

ـ ولكن عندي خال.. فصلوه من الحزب لأنه تكلم بالحقيقة والصراحة.

ـ هذا أمر آخر.. أنا لا أتحدث معكم بالسياسة.. إنني أعطي لكم صورة عن الأخلاق.. هيا قُمْ وتحدث يا«أوغوز» ماهو الكذب؟.

ـ إنه شيء حسن يا أستاذ.. إذا أقنعت الآخرين فهو حسنٌ. أنا إذا لم أكذب في البيت.. آكل كل يوم قتلة..

ـ ماذا قلت لكم! يجب على الإنسان أن يأخذ الكبار قدوة.

ـ هذا حسن يا أستاذ ولكن.. أختي الكبيرة تكذب كل يوم على أمي. وأمي على أبي.. وأبي عندما يأتيه الدائنون.. يقول لنا: قولوا أنه غير موجود في المنزل.

ـ اخرج من الصف.. اخرج يا قليل التربية!!.

ـ ألم تقولوا قبل قليل يا أستاذ أن الإنسان الأخلاقي يتحدث بصراحة؟.

ـ اجلس مكانك.. إن الأخلاق أيها الأولاد.. شيء جميل لأبعد الحدود. يجب أن تكونوا أخلاقيين. مثلاً.. إذا وعدتم أحداً بوعدٍ ما يجب أن تفوا بوعدكم مهما حصل لكم.

ـ ولكن يا أستاذ.. لقد قال أبي... إن أحدهم نسيتُ اسمه.. قد قال: أنه سيخفض من أسعار المواد.

ـ اخرس.. لا تدخل أنفك فيما لا يعنيك.. ليس هناك أجمل من الأخلاق يا أولاد. إذا قرأتم الكتب الأخلاقية فستدهشون كثيراً.. حتى الأنبياء يتحدثون عنه: هل أنتم تعرفون أكثر منهم. إن الأخلاق شيء حسن وجميل جداً. شيء جميل وحسن حتى أنها ممتازة جداً. والله وبالله وتالله شيء حسن، أنا قليل الناموس إذا لم تكن شيئاً حسناً زيرو.... رن جرس الانصراف.. يمسح الأستاذ العرق من جبينه. ويقول:

ـ أووه ه ... أووه ه...



١٥

الرجل الذي وقف وألقى نظرة

جئت قبل الموعد بنصف ساعة.. صعدت فوق الجسر.. والحقيقة أن الإنسان في بعض الأحيان يفتش على قليل من الفراغ لإزالة التراكمات الحضارية من أعماقه.. لا نشعر بمرور الوقت أو بالأشياء التي تدور من حولنا.. لأن، دولاب الزمن يمر سريعاً جداً.. اتكأت على العوارض الحديدية للجسر.. وبدأت انظر إلى حركة الحياة في المرفأ.. كانوا يقلون على أحد القوارب الأسماك الطازجة.. ويضعونها داخل قطعة خبزة ساخنة ويبيعونها.. وعلى قارب آخر يبيعون الدراق والعنب.. وبعض القوارب تصطاد الأسماك. واقترب شخص ووقف عن يميني.. واستند هو الآخر إلى إحدى الرؤوس الحديدية. كانت البواخر تتحرك تباعاً نحو البوغاز والجرار.

جاء شخص آخر ووقف عن يساري.. ومن الخلف أيضاً جاء شخصان.. كان التيار قوياً على رأس الراي.. حيث أن الرأس كان يمشي كسفينةٍ كبيرة مسرعة جداً.

بدأوا يدفعونني من الخلف.. أدرت برأسي نحوهم.. فأصبح خلفي عشرة أشخاص تقريباً.. وازدحم كثيرون من يميني ويساري أيضاً.

في هذه الساعة عند مغيب الشمس، وعلى نوافذ المساكن المصطفة في الطرف الآخر من البوغاز... كانت عشرات الشموس تحترق على كل نافذة من النوافذ.

ـ ماذا هناك؟

ـ لا أدري..

ـ لماذا اجتمعوا هكذا..

كان المجتمعون خلفي وعلى جانبي يقولون.. انظر إلى النوارس. كيف تدور في الهواء.

ـ أليست هذه طائرة نفاثة؟

ـ لقد دخلت ضمن الغيوم.

ـ لو تسمحوا بعض الشيء حتى ينظر هذا الغلام الصغير أيضاً.

ـ متى سيأتي؟

ـ من؟

ـ ألا تنظرون إلى الملك.

ـ آ آ آ.. تقول الملك.

ـ لماذا تدفعني يا سيدي؟.

ـ من الذي دفعك ولك عيني.. انظر إنهم يدفعوننا من الخلف كانت الزحمة قد زادت تباعاً.

ـ انظر ياسيدي إلى قوة المعارضة.. لو جاء أحد المسؤولين من الحكومة.. لما حدثت هذه الزحمة.

ـ ماذا تقول ولك عيني.. إن القادم ليس من المعارضة. إنه السيد قسَّام..

ـ هل تقول السيد قسَّام.. اسمحوا لي أن أصعد بعض الشيء.

ـ ولك يا أخي لا تصعد هكذا..

ـ عفواً.

ـ ولك لا تدفعوني..

ـ من الذي يدفعك ولك عيني.

ـ كم سفينة يقولون؟

ـ أية سفن تقصد؟

ـ آ آ آ.. أليس عندك علم؟.. إن أكبر سفينة في الأساطيل الأمريكية قادمة.

ـ يا.. يا.

ـ إذا كان عندك علم بذلك.. فلماذا جئت إلى هنا؟

ـ ياأخي أنا لم آت عن قصدٍ. ولكني تعلقت بالتيار.. حتى رماني هنا، ثم سدّ لي وجهي.. وهكذا.. كما ترى علقنا هنا ولا أستطيع الحراك.

ـ ولك ابني.. ابعد رأسك بعض الشيء من هنا..

ـ خذوا هذا الولد وضعوه أمامكم.. ليتمكن من المشاهدة.. ينالكم بعض الثواب..

ـ ولكن ياأخي لا تتدافعوا هكذا.. هنا امرأة حامل.

ـ هل سيأتي الملك بالمحرك؟.

ـ لا أعتقد.. إنه يركب مدرعة على ما أظن.

ـ له زوجة أيضاً.. أليس كذلك؟..

ـ لا يقال عنها زوجة. فزوجة الملك الكبير. يقال لها ملكة....

ـ أبعد يدك بعض الشيء.

ـ هل غرق أحد ما؟

ـ يقولون إنهم أنقذوهم جميعاً.. الشيء الحسن أن الاصطدام جرى داخل الميناء.. لذلك لم تغرقا.

ـ إن حوادث الاصطدام البحرية.. صعبة ياأخي.. في تاريخنا...

ـ أوف.. ابتعد من خلفي.. ! يالك من رجل لا تخجل...!.

ـ هل اعتدينا على شرفك؟. لماذا لم تأخذ قارباً لتستقبل فيه الملك.

ـ قليل التربية.

ـ أنت..

ـ أقول لك أبعد يدك.

ـ أليس هذا سمكاً.

ـ أي سمك ولك أخي.. هل كل هذا الازدحام من أجل السمك.

ـ ولماذا هذا الاجتماع الكبير إذن.

ـ لقد صنعوا سفينة جديدة كبيرة.. سيجربونها.. لذلك اشتد الازدحام

ـ وأية سفينة هذه؟. محركها من ألمانيا وآلاتها من أمريكا. ودهانها من إيطاليا.

ـ ليكن.. قديماً لم نكن نصنع السفن.

ـ شيشت.. إنهم قادمون.. على الأغلب.

ـ من القادم.

ـ آ آ.. أليس لك علم؟. كل هؤلاء الناس ينتظرون نمورنا.. لقد أصبحوا أبطال العالم. إن مصارعينا قادمون من أوروبة بالسفينة.

ـ أوف.. ما هذه الزحمة.. ابتعدوا بعض الشيء حتى أتنفس بشكل صحيح.

ـ لولا هؤلاء المصارعين.. لكانت نهايتنا وخيمة..

حاولت المستحيل كي أتخلص من الزحمة ولكن مستحيل.. كانت الزحمة تزداد تباعاً والدهس والتدافع من جميع الأطراف.. ومن كل رأس يصدر صوت ما.

ـ ألم يجد مكاناً آخر حتى جاء يخطب هنا.. هل يعيد الخطاب فوق هذا الجسر؟..

ـ هل سمعت السيد جعفر في حياتك؟

ـ لا...

ـ اسمع.. وشوف.. على وشك أن يأتي..

ـ لماذا اجتمعوا هناك.. هل يبيعون ورقاً للذباب؟

ـ لا يا خالتي.. ألم تقرئي الجرائد.. يقولون إن القنبلة الشقراء ستأتي.

ـ إذن هي القادمة.. آه لو أراها..

ـ ستمر بعد خمس أو عشر دقائق.. لقد ذهبوا لاستقبالها.. ستمر من هنا.

ـ خذ حذرك بعض الشيء يا أخي.. من النشالين الذين يتواجدون بيننا.

ـ هل تتذكرون دخول الجيش التركي.. إلى استانبول. في ذلك اليوم أيضاً كانت الزحمة هكذا..

ـ أنا أتذكر دخول الجيش الوطني الاستقلالي إلى استانبول.. كان الازدحام شديداً.. فلو رميت إبرة إلى الأرض.. ما نزلت إلا على البشر. من أي بلد آت حضرة الملك هذا.

ـ إنه ليس ملكاً.. يقولون إنه رئيس جمهورية.

ـ ولك يا أخي.. لماذا تدفعني دائماً.. عندما سيأتي سنراه جميعاً.

ـ والله إنهم يدفعونني من الخلف...

ـ من هم؟

ـ أليسوا هم الذين غلبوا «فنار بخشة» أليس كذلك.

ـ من هم؟...

ـ يقولون إن الفريق القادم هو البرازيلي . ولهذا السبب فإن الشعب ينتظرهم.

ـ هل تقول الفريق البرازيلي؟

ـ لقد دست على رجلي.. ولك يا أخي.. هل أنت أعمى؟

ـ متى سيكون هذا المرور الرسمي يا ترى؟

ـ الآن سيمرون.. انظر الشعب كيف ينتظرهم؟

ـ ما هذا العيد يا ترى؟

ـ عيد الأطفال.

ـ هل أطفالنا الذين سيمرون من هنا؟

ـ طبعاً.

ـ كن حذراً بعض الشيء ولك أخي.

ـ المعذرة.. إنهم لا ينظرون كبشرٍ.

ـ هل رأيتها؟

ـ نعم رأيتها.. طارت من هذه الناحية.. ودخلت ضمن الغيم الذي يشبه رأس ثور.. ثم اختفت.

ـ يا ترى من أين تأتي هذه الأطباق الطائرة؟. هل هي قادمة من المريخ.

ـ ليس طبقاً طائراً بل هذا طائر.

ـ ها هنا.. ها هنا....

ـ انظر.. آ آ.. كم هو سريع..

ـ العن أمه.

ـ ولك أخي هذه طيارة ورق طائرة قطعت حبالها.

خرجت من الزحمة بعد ألف محاولة.. كان المرور قد توقف.. وفوق الجسر أصبح كيوم الحشر من كثرة الازدحام.. وصافرات الشرطة لم تتوقف.. يحاولون فتح الطرقات.. كانوا قد أصبحوا بين دم وعرقٍ اقتربت من شرطي كانت قبعته تشبه قبعة «كولونيل» وقلت له:

ـ عفواً.. ما الذي يجري هنا؟

قال: لا أدري.. يقولون أن ملكاً ما سيمر أو فريق كرة قدم.

ثم تعلق بصفارته.

ـ بير.... ابتعد من هنا.. ابتعدوا من هنا...



١٦

مجادلة مع الفُحش

من الجرائد.

«إن الفتيات اللواتي يُخدعن من قبل بعض المنتجين السينمائيين على أمل جعلهن نجمات لامعات في عالم السينما. قد تجاوز عددهنَّ الآلاف. ونحن كاتحاد للنساء فقد وضعنا بعض النسوة الشابات كعميلات لمراقبة مثل هذه الأحداث. والقبض على المخادعين بالجرم المشهود. ورتبنا كل شيء على أكمل وجه. وبهذا الخصوص... فإن مديريات الأمن.. ستساعدنا في عملنا هذا. وذلك بإعطائنا بعضاً من عناصرها النسائية العاملة في قواتها».

رئيسة وحدة النساء

في اجتماع الوحدة النسائية.

ـ كما تعرفن أيتها الزميلات. بناء على القرار الذي اتخذناه قبل فترةٍ.

ـ أي قرار؟ أي قرار ذلك؟. اتخذنا قرارات كثيرة لكننا لا نستطع تذكرها لمدة طويلة.

ـ لو تسمحي لي، أكمل حديثي..

ـ آمان ولك أختي وهل أحد يقول لك لا تتحدثي..

ـ هؤلاء المنتجون السينمائيون.. يخدعون البنات بوعدهن أنهن سيصبحن نجمات..

ـ ذكرتُ الفيلم.. وذكرتيني بالفيلم.. الذي يعرض الآن «عشق العذارى». هل شاهدتِهِ؟.. إنه فيلم.. وأي فيلم...

ـ عفواً أيتها الخواتم.. هل أتحدث؟...

ـ إذا كنت تريدين أن تتحدثي.. فتحدثي يا حبيبتي.. إذا تحدثت هل تحسبين أننا سنسكت..

ـ بعض عديمي الأخلاق يخدعون الفتيات بوعدهن أن يجعلوا منهن نجمات سينمائيات.

ـ عيب عليهم..

ـ ما أكثر الرجال الكاذبين في هذا العالم.

ـ في إحدى المرات.. أنا الأخرى كنت على وشك أن أصبح نجمة... ليست كبيرة.. بل لبعض الوقت فقط..

ـ هل بينكن متطوعات ليصبحن نجمات..

ـ «جميع النساء ينهضن دفعة واحدة.. ويرفعن أيديهن نحو الأعلى. ويحاصرن كرسي الرئاسة».

ـ أنا موجودة.

ـ لو لم تختاريني سأزعل منك والله.

ـ أنت تليق بك الأدوار..

ـ فهمت.. جميعكن تواقات لهذا العمل النبيل.

ـ ولكن لا أريد بكاء..

ـ إذا لم يعطوني البطولة فلن أمثل أبداً.

ـ أنا أمثل بفيلم عارٍ ويجب أن يكون فيلماً غرامياً..

ـ أنا أموت بالأفلام الراقصة، عندما أهزُّ خصري ستفتحين فمك إعجاباً ودهشة.

ـ أيتها السيدات.. لقد فهمتن بالخطأ ما أقصد.. لقد تحدثنا في هذا الموضوع. مطولاً قبل مدة.. نحن لن نصبح ممثلات أو فنانات».

ـ يعني سنصير ممثلات مزيفات.

ـ المقصود من كل هذه المسألة.. هو معرفة المخادعين في الشركات.

ـ أنا تراجعت عن فكرتي..

ـ آ آ آ... أنا الأخرى.. لا أريد.. ظننت أننا سنكون نجمات أصيلات.

ـ امسحي اسمي أيضاً.

ـ يعني ولا واحدة ترغب في المشاركة.

ـ اكتبي اسمي... أنا أُريد.

ـ في منزل صيفي لشركة سينمائية..

المدير: هل رأيت النسوة؟

المنتج: هل تقصد اللواتي جئن في الصباح. ليس بينهن قطعة نظيفة.

المدير: لا يا روحي.. اقرأ الجرائد.. وانظر ما كتبوا فيها.

امرأة: ماذا في الجرائد؟

المدير: وحدة للنساء «اتحاد للنساء».

«بدأ الجميع بقراءة الحوادث في الجريدة».

امرأة نجمة: آي... «أرغب بالضحك» هذا يضحك فعلاً.

مصور: هاه.. هاه.. هاه..

المنتج: تمام أيها الزملاء في هذه المسألة شيء ما.. الآن نستطيع أن نعمل بجدٍ ونشاط.. هيا يا ضناي «كول بيدي» خذي ورقة وقلماً واكتبي

ما سأقوله لك «نبحث عن نجمات.. من أجل إنتاج خمسة أفلام محلية، نبحث عن فتيات راغبات بالتمثيل، ومن كافة الأعمار». اكتبي عنواننا، وأنت يا حسن خذ هذه الورقة واكتب اعلاناً في الجرائد».

في مديرية الأمن: «مفتش مدني مع عنصر نسائي من الشرطة».

ـ أيتها السيدة مليحة..؟

ـ تفضلوا ياسيدي المفتش.

ـ لقد وجدنا لك مهمة عمل مهم جداً.

ـ أرجو أن لايكون فخاً آخر.

ـ لا...

ـ البيوت السرية..

ـ لا ليس هناك هذا عمل ستنجحين فيه تماماً.. هناك عميلات ممثلات.

ـ نعم... نعم...

ـ يبحثون عن نجمات لإنتاج فيلم.

ـ نعم ياسيدي المفتش.

ـ ستراجعين العنوان /أي ستتصلين بهم/.

ـ صحيح ياسيدي.

ـ ستكونين ممثلة.

ـ آه.. ما أجمل ذلك.

ـ يقومون بهذا العمل لإيقاع الشابات الصغيرات.

ـ لو يعطوني دوراً جميلاً على الأقل.

ـ إن دورك مهم جداً.. ستتصلين بهذا العنوان..

ـ سأقول لهم أنك أرسلتني.

يخدعون الفتيات الصغيرات وبأي الطرق والوسائل.. هل تفهمين؟ أليس كذلك؟

ـ آه ياربي.. شكراً لك ياسيدي.

ـ انظري إلى هذا الإعلان في الجريدة.. إنه فخٌ.

ـ طبعاً... طبعاً ياسيدي المفتش.. آه لو كان الفيلم (عارياً) خلاعياً.

ـ هيا لأرى شطارتك..

ـ لا تفكروا بذلك ياسيدي.. على الرأس والعين.. أنا ذاهبة الآن فوراً. إلى مكان انتاج الفيلم:

السيدة: جئت ياسيدي بعد أن رأيت إعلانكم في الجريدة.. إنه مخالف لرغبتي في أن أكون ممثلة منذ كنت صغيرة. آه لو تعرفون فعندي رغبة كبيرة في التمثيل.. فقد أرسلت صورتي لإحدى الجرائد التي كانت قد أعلنت عن مسابقة لاختيار أجمل وجه.. لقد أكلوا حقي.

المنتج: ـ قبل كل شيء هل مثلت؟

السيدة: كنت أمثل في حفلات المدرسة... وقد قوبلت مراراً بالتصفيق الحاد... وأنا أقلد... هل أقلد؟..

تدخل المرأة الشرطية.

المرأة الشرطية ـ أليس هو المكان الذي يبحثون فيه عن الممثلات ياسيدي عفواً... إنني خجلة بشكل عجيب.. فقلبي ينبض بقوة من الرهبة.

المنتج ـ تفضلي إلى هنا.. ولا داعي للقلق أو الاضطراب.. يحصل معك هذا الشيء حتى تتعودي.. وعندما تتعودين تنضجين على أكمل وجه. تعالي إلى هنا حتى يمتحنك المدير.. وليأخذ قياساتك..

السيدة: إن قياساتي نظامية جداً.

المرأة الشرطية : هذا واضح.. بحق الله..

السيدة: إنهم يشبهون صدري بصدر «بريجيت باردو».

المرأة الشرطية: إنهم يلقبونني «مارلين ملحات» انظروا..

المدير: رجاء ارفعي تنورتك بعض الشيء.. جميل..

السيدة: وأين الجمال هنا... ألم نر في حياتنا أنَّ سيقاننا جميلة.

المدير: ظهرك.. جذاب.. جميل.

السيدة: إن خصري نحيف جداً..

المدير: صدرك رائع جداً.. وعلى أكمل وجه..

السيدة: إن صدري ليس اصطناعياً ياسيد ريجيسور.. انظر.. إنه صدري الحقيقي.. ليس اصطناعياً..

المدير: يجب أن نجربك مرة.. ونأخذ لك بعض الصور..

السيدة: إن صوري تنجح تماماً.. فأنا لا أمدح نفسي.. فالكثيرون جداً قد عشقوني من خلال صوري..

المرأة الشرطية: أنا في الصورة أفضل من شكلي الحقيقي.

المنتج ـ الآن سيأخذون قيدك ويسجلونك عندنا.

السيدة: ماهو هذا القيد /التسجيل/.

المنتج: سنسجل اسمك على الدفتر.. رجاء ادفعي خمساً وعشرين ليرة رسوم التسجيل.

المرأة الشرطية: تكرم عينك.. ادفعي له.

السيدة: تفضلوا.

المنتج: اذهبا إلى استوديو التصوير.. فهناك يجب أن تتصورن صور ومواقف فنانات.. من الأمام والخلف والجانبين.. ومن الأسفل والأعلى.

المرأة الشرطية: وبعد ذلك؟

السيدة: ومتى سنمثل.

المنتج: قبل كل شيء سنصور فيلماً تجريبياً.. فإذا أعجبتمونا. وحالفكنّ الحظ.. سنجعل منكن ممثلات يفتخر البلد بكن.

السيدة: آه ياربي.

المرأة الشرطية: أشكرك جزيل الشكر.

السيدة: سأقول لك شيئاً خاصاً ياسيدي المدير.

المرأة الشرطية: أنا الأخرى سأقول لك شيئاً سرياً.

يدخل المدير والسيدة إلى إحدى الغرف الجانبية.

لاتثقوا بهذه السيدة.. فساقاها قبيحتان جداً.. أليس كذلك. وخصرها عريض.. وبطنها كبير..

المدير... لا.. إن بطنها جميل ولا نستطيع أن نقول عنه شيئاً..

السيدة: كما تريدون.. سأقول لك شيئاً آخر.. ولكن....

المدير: تكلمي.. تكلمي.

السيدة: سأقول ذلك إن لم تعط دوراً لتلك المرأة.. فإنها ستخبر عنك والله والله.. هل فهمتم؟ أقول لكم ذلك لشدة عشقي للفن وكذلك لفن العشق.

المرأة الشرطية: أنا أمثل جيداً ياسيدي.. أبكي حقيقة في أية ساعة شئت.. وأضحك دون سبب ضحكاً عادياً جداً.. أقبل الأدوار الدرامية والكوميدية.

المنتج: كنت ستقولين لي شيئاً ماهو؟

ـ لو تعطيني البطولة.. ستعطينها أليس كذلك؟ ماذا يحصل؟ لا تعطوا

البطولة لتلك المرأة.. لأنها...

ـ نعم...؟

ـ لأنها جاءت إلى هنا من أجل شيء آخر.

ـ نعم.... نعم... سأعطيكما أنتما الاثنتين.

ـ آه... ما أحسن ذلك.. ما أحسن ذلك..

○ ○ ○

١٧

اقطع لي عقاراً مساحته ٧٨ سنتمتراً

منذ عدة ليال لم يغمض لي جفن.. كنت أشعر بنعاس شديد.. من جراء الأعمال الكثيرة التي قمت بها.. فأعصابي قد توترت.. وتملكتني رغبة عارمة للنوم، ولكنني لا أستطيع أن أغفو بأي شكل من الأشكال.

ذهبت إلى طبيب الأعصاب. فقال لي:

ـ كم ساعة تعمل في اليوم؟

قلت: بين ست عشرة إلى عشرين ساعة.

لم يصدقني. بل قال لي:

ـ أنت متعب... لماذا تشتغل هذه المدة وترهق نفسك.

فكرت أن أشتم الرجل بدلاً من أن أجيبه... هل هذا كلام؟

فالعمل مفروض عليَّ.. من أجل ذلك. أعطاني حبوباً منومة.. ومهدئاً للأعصاب وأتمدد في الفراش.. وبينما أنا على وشك أن أغفو أتذكر فجأة أجار المنزل المتراكم... منذ ثلاثة أشهر.. عندها إن كنت تستطيع النوم، فافعل إذا كنت شاطراً.

أبدأ بالحساب والكتابة ٣٦٠.. نطرح منها خمسة وعشرين.. لا تخرج الخمسة من الصفر.. نأخذ واحداً من الستة.. نعطيها للصفر تصبح عشرة إذا أخرجت الخمسة من العشرة يبقى خمسة. وإذا أخرجت الاثنين من الخمسة يبقى ثلاثة. ثم ننزل الثلاثة.. ٣٣٥.... ٩٦. خمسة أخرى +

ستة يكون إحدى عشرة. واحد ضرب واحد يساوي واحد.

عندما لا أستطيع أن أصل إلى الحساب الصحيح ذهنياً.. انهض من الفراش بسرعة: في هذه المرة أبدأ الحساب على الورقة وبالقلم. آخذ حبة منوم أخرى.. عندما أشعر أنني على وشك النوم أتمدد على الفراش. في تلك اللحظة أقول في نفسي: لو وضعت في كل شهر عشر ليرات جانباً.. كم يبلغ الوفر في العام؟. إن آجار المنزل يقتلني.. لم أستطع أن أصبح مالكاً لسقف حتى الآن في هذه الدنيا.

خلال أسبوع كامل نمت خمس ساعات إن لم يكن أقل.. في اليوم الرابع من عدم النوم.. لم أعد أقوى على الوقوف.. أخذت الجريدة. وتمنيت أن أغفو وأنا أقرأ فيها.

في الصفحة الأولى قرأت هذه الحادثة «بيع عقار حي بأربعة ملايين ليرة» أربعة ملايين ليرة.. ومساحة العقار ١٦٢٤ متراً.. حاولت تقسيم أربعة ملايين على ١٦٢٤.. مع أنني لا أجيد الحساب.. ولكن لديَّ رغبة به فكان سعر المتر الواحد ٢٥٠٠ ليرة.

قلت في نفسي: عجباً.. لو حاولت شراء هذا العقار لنفسي.. ها.. أربعة ملايين ليرة.. وأنا اقبض في الشهر خمسمائة ليرة.

جاءت زوجتي.. وبدأت تتوسل إليَّ لأنام.

ـ نم بعض الوقت بالله عليك.

قلت لها وأنا أطردها:

ـ ابتعدي عني ألا ترين أني أقوم بعملية حساب.

في الشهر خمسمائة ليرة.. مهما أحاول الشد على أسناني ومعدتي.. فكم سأوفر.. لا شيء.. على كل حال.. لو أضع كل شهر مائة ليرة جانباً.. أجمع في العام ١٢٠٠ ليرة.. في عشر سنوات ١٢٠٠٠ ليرة في

مائة عام ١٢٠٠٠٠ ليرة. لو أعيش ألف عام بعد الآن ولو وفرت كل شهر مائة ليرة سأجمع مليون ومائتي ألف ليرة.

أيضاً الحساب ناقص..

نويتُ أن اشتري هذا العقار بكل السبل والوسائل.. بدأت الديكة تصيح.

إن حب الحساب قديم عندي. حتى في أيام الثانوية.. حيث كنت أحسب عدد السنوات التي سأصل بها إلى القمر والشمس والمريخ.. وأنا أجري بكل قوتي دون توقف.. ودون طعام أو شراب.

وكما جاء في الحسابات التي أجريتها اتضح لي أن الوصول إلى الشمس سيراً على الأقدام أسهل من شراء هذا العقار.

حل الصباح ولم أكن قد خرجت بعد من معمعة الحساب.

لو أعيش ثلاثة آلاف عام.. فلن أستطيع شراء هذا العقار.. هذه المرة سأغير عملية الحساب.. ولو وفرت كل ما أقبضه في الشهر وهو خمسمائة ليرة ماذا يحصل؟... حساب.. وكتابة ونتيجة.. يجب علي أن أعيش ٦٦٦ عاماً وأعمل يومياً بدون راحة. في هذه المرة أيضاً لن أستطيع شراءه... أخذت حبتي منوم دفعة واحدة. وتمددت على السرير.. وبما أن كل عقلي وفكري في العقار فإن النوم لا يقترب من عيني.. نهضت ثانية وقمت بعملية حسابية.

لو أعمل بدلاً من ستة عشر ساعة، ٢٤ ساعة متواصلة.. ويزيد من دخلي الشهري ليصبح ألف ليرة.. ودون أن أصرف منه قرشاً واحداً.. ياسيدي الكريم.. يجب علي أن أعيش مدة ٣٣٣ عاماً متواصلة.

بدأت ابنتي تترجاني:

ـ لو تنم بعض الوقت يا أبتِ.. ماذا يحصل يعني.

طردتها من غرفتي شر طردة.. روحي عن رأسي.

فإذا لم أشتر العقار لن أستطيع النوم.. في هذه المرة بدأت الحساب من طرف آخر.. كم يجب علي أن أعمل وأقبض في الشهر حتى أستطيع شراء هذا العقار.. لو ربحت في الشهر ألفي ليرة. كان علي أن أعيش ١٦٧ عاماً حتى أستطيع شراءه.

يا الله.. لعن الله الشيطان.. مع كل الحساب والكتاب لم أتوصل إلى نتيجة.

قلت في نفسي:

ـ انظر يا رجل.. إن الذي اشترى العقار هو أيضاً بشرٌ مثلي.. عَمِلَ واشتغلْ وقال «إن المال لا يزداد بالعمل ولكنه يزداد بالشد على البطن» لا... لا... قال: يزداد بالعمل وبالشد على البطن.. أوووف... ليقل ما يقول وما دخلي في مقولته. المهم أنه عدَّ الأربعة ملايين واشترى العقار.

ـ هل تأخذ حبة أخرى؟

أخذت حبة منوم ثالثة.. لقد تحولت معدتي إلى صيدلية.

ـ هيا.. يا روحي.. نم بعض الوقت.

ـ كفوا عن إزعاجي ولك.

طيب كيف ربح هذا السيد الأربعة ملايين ليرة.. هذا حساب جديد بما أنه دفع ثمن العقار أربعة ملايين ليرة.. فقد بقي معه على أقل تقدير أربعة ملايين أخرى.. ثمانية ملايين.

ما نوعية هذا الشخص؟. لو كان موظفاً من الدرجة الأولى يكون راتبه الشهري ١٥٠٠ ليرة.. ولكي يوفر هذه الملايين الأربعة عليه أن يعمل ويجد دون أن يصرف منه قرشاً واحداً على الأقل ٢٧٦ سنة.

قاتل الله الشيطان.. رأسي يكاد ينفجر.. هذا الشخص يجب أن يكون طبيباً.. لأن الأطباء يربحون كثيراً.. فهم يأخذون على كل معاينة ثلاثين ليرة.

ـ لقد حل الصباح.. نم بعض الشيء..

ـ أقول لكِ لا تزعجي رأسي ولا تقطعي تفكيري..

لو عاين كل يوم عشرة أشخاص.. فيكون الدخل ثلاثمائة ليرة في اليوم، وفي الشهر الواحد تسعة آلاف ليرة. لو وضع ستة آلاف ليرة جانباً فيجب عليه أن يعمل في مهنته دون توقف مدة ٦٧ عاماً كي يشتري هذا العقار.. لا.. صاحب هذا العقار.. ليس طبيباً.. لو كان تاجراً وربح كل شهر عشرة آلاف ليرة.. هذا أيضاً غير ممكن.

ـ مضى عليك خمسة أيام وخمس ليال لم تنم أبداً.. ماذا يحصل لو تغفوا بعض الشيء.

أضع رأسي على الوسادة.. وأغمض عيني.. لو كنت رجلاً نم. هاه.. لقد وجدتها.. لو فتح المرء «بيت موعد» ووضع فيه خمس حسناوات هن رأسماله.. فلو جلبت كل فتاة في اليوم مائة ليرة.. فيكون خمسة ضرب مائة تساوي خمسمائة.. خمسمائة ضرب ثلاثين فيكون الدخل في الشهر خمسة عشر ألفاً.. إذا رفعنا خمسة آلاف للمصاريف والآجار والذهاب والإياب يبقى عشرة آلاف.. يعني في العام الواحد مائة وعشرون ألفاً. في ثلاثين عاماً.. نوه.. قاتل الله الشيطان..

حتى ولو فعلت هذا الشيء فلن أستطيع شراء هذا العقار.

لو أعمل مهرباً.. هذه الفكرة معقولة.. نهضت من الفراش بسرعةٍ.. وبعد حساب وكتابة.. هذا أيضاً لا مناص منه..

برقت في رأسي فكرة جديدة.. وضعت يدي في جيبي فوجدت فيها اثنتي عشرة ليرة ونصف.

ـ كم ليرة معك يا هانم؟

أخذت من زوجتي خمس ليرات ومن أولادي ليرتين. ليس شرطاً أن

نشتري كل العقار... أشتري بقدر رأسمالي.. إذا كان المتر الواحد للعقار يساوي ٢٥٠٠ ليرة.. فلن أستطيع شراء متر واحد.. وإذا كان كل ديسمتر يساوي ٢٥ ليرة.. وهذا أيضاً لن أستطيع شراءه.. لنقل أن كل سنتمتر يساوي خمسة وعشرين قرشاً. أنا معي تسع عشرة ليرة ونصف.. وبهذا المبلغ أستطيع شراء ٧٨ سنتمتراً من هذا العقار.. نظرت إلى الساعة.. بقي ساعتان لحلول الصباح سأذهب في الصباح الباكر.. وأقول لهم.

ـ افرز لي ٧٨ سنتمتراً من هذا العقار.

في المنزل بدأ الجميع في الترجي.

ـ رجاء نم بعض الشيء..

عقار مساحته ٧٨ سنتمتراً. لو جعلته مرقدي الأخير الأبدي. وتمددت فيه فلن يسعني.. ستدخل ساقاي إلى قبر جاري. وما من حل سوى أن أشتري العقار وأقف فيه على رجلي فقط.

قلت لزوجتي وأولادي:

ـ أنتم ليس لكم مكان.. لقد وجدت مكاناً لنفسي في هذه الدنيا أقف فيه على رجلي.. هيا.. أريحوا رأسي.. أما أنتم ففتشوا عن مكان لكم.

ـ لقد غلب النعاس جفنيه كاد رأسه أن ينفجر.

قالوا ذلك وانسحبوا خائفين من رأسي.

وأعطيكم عهداً.. لو فكرتم مثلي بكيفية جمع الملايين الأربعة.. وكم سنتمتراً من العقار تستطيعون شراءها.. ولو حسبتم كل ذلك، فأنا على يقين تام.. أنكم ستأخذون حبات المنوم.. كحبات الحمص العادي.. وسألتقي بكم في مشفى الأمراض العقلية في الجناح الثامن.. وأنا في السرير الأول قرب الباب.. انتظركم.

○ ○ ○

١٨

هل تستطيع إفهامهم؟

كانت السرافيس تمر من الزقاق الذي يقبع فيه المحل العمومي.. لأن باقي الطرقات مازالت قيد الترميم..

إلى جانب السائق جلس غلام في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره.

أما أنا فجلست قرب ذلك الصبي. ومن الخلف. جلس رجل وامرأة شابة وامرأة عجوز.. وقربهما فتاة صغيرة.. ويفهم من خلال الأحاديث أن هؤلاء الأربعة من عائلة واحدة.. أب وأم... وأم الزوجة أي حماة الرجل وطفلاهما. الطفلان.. يسألان عن كل شيء.. والبنت تسأل على الدوام... وكان الصبي يغضب عندما لا يأتيه دورٌ للكلام.. هو الآخر كان يلتفت إلى الخلف ويسأل والده «ما هذا الشيء يا أبي.. وما ذلك الشيء يا أبي؟».

انعطفت السيارة إلى حي التقسيم نحو اليمين.. مررنا في الأزقة الداخلية.. ومن زقاق إلى زقاق.. يا سيدي لم نجد أنفسنا إلا في ذلك الزقاق.. ذلك الزقاق يا روحي اسمه (عيب أن تذكره هنا). الزقاق الذي يعرف اسمه الجميع ولا يحبون أن يذكروا اسمه. الزقاق الذي لا تمر النساء منه أبداً.

أما الرجال المتزوجون فهم يحبون أن يمروا فيه ولكنهم لا يستطيعون.. وربما يمرون سراً. أما العازبون الذين يحبون الدخول إليه فيدخلون.. هذا

هو الزقاق الذي مررنا منه.. الرجال أمام البيوتات جماعات جماعات.

غضب الرجل المسافر غضباً شديداً من السائق:

ـ ألم تجد طريقاً أخرى... حتى مررت بنا من هنا؟

غضب السائق أكثر من الرجل... وقال:

ـ وماذا سنفعل يعني.. هل نحن نقصد المرور من هنا بإرادتنا... الله الله.. كل الركاب يسألون.. لماذا تمر من هنا.. يكفي... يكفي ألا يكفي.. في هذه المرة سألت المرأة زوجها:

ـ ماذا يوجد في هذا الزقاق ياسيدي؟

هز الرجل رأسه وقال «لا حول ولا قوة».

ـ ماذا هنا يا سيدي؟. لماذا نحن صامتون؟

ـ استمر السائق بالحديث.

ـ إن البلدية تقوم بإصلاح الطرق الأخرى.. وشرطة المرور منعت السيارات من المرور عن غير طريق.. وقد كتبت الصحف عن هذا الأمر.. ألم تقرأوها.

«السيارات ستمر من هنا».

قال الرجل: كفى... فهمنا..

الزقاق ضيق من طرفيه. فيه زحمة كبيرة. «من الأمام أغلق الطريق.. توقفت السيارة التي نحن فيها.. نمشي دقيقتين ونتوقف خمس دقائق.. ثم نتحرك بضع دقائق.. ونتوقف خمس دقائق أخرى.

في هذه المرة تسأل المرأة العجوز صهرها:

ـ ماذا يوجد في هذا الزقاق يابني... هل هناك شيء؟

قال الرجل:

- آه.. يا ربي.. هل تستطيع إفهامهم؟.. ألا ترين يا أمي.. ماذا يوجد يعني. ليس هناك شيء واحدٌ.. بل هناك أشياء كثيرة.

يقول الرجل... إذا نزلنا هنا لا نستطيع.. الأمر على أسوأ.. «لقد توقفت السيارة في مكان عجيب».

- تقدَّم بهذه السيارة إلى الأمام بضعة أمتار.

- وكيف سأقودها يا سيدي؟.. هل أطير بها.. الطريق مغلق أمامنا وخلفنا.

كنا واقفين أمام المنزل رقم /٥/ كان الواقفون أمام الباب يتدافعون لمراقبة الموجودين في الداخل خلال ثقب الباب.

قالت المرأة الشابة:

- على الأغلب هنا سوق ما.

يظهر أن سوق الخميس يقام هنا.

المرأة الشابة:

- إن سوق الخميس يقام عندنا أيضاً.

انظر إلى الرجل.. إن العرق يتصبب منه كحباتِ الخرز.. في هذه اللحظة يبدو أن المرأة قد قرأت اللوحة الموجودة على الباب وإذا بها تصيح:

- آ آ آ...

قال زوجها:

- نعم.. آ آ آ.. نعم آ.. هل فهمت الآن أين نحنُ؟

كانت الفتاة الصغيرة تريد الاستفسار:

- ماذا هناك يا أمي؟.. هل حصل شيء ما.

ـ لاشيء.. لا شيء يا ابنتي..

كان وجه المرأة قد أصبح أحمر من الخجل.

تقدمنا مترين آخرين نحو الأمام.. كان رجل ما يخرج من باب المنزل الذي وقفنا أمامه وهو نصف عار تماماً... كان يلملم نفسه وهو يهبط الدرج... أما المزدحمون أمام الباب فكانوا يصرخون ويصيحون ويتدافعون.

ـ افتح ولك...

ـ لماذا لا تفتح... ولك.

الشيء الذي كان الرجل يخاف منه وقع على رأسه.. بدأ الولد يسأله:

ـ ماذا يفعلون هنا يا أبي؟

الرجل يجيب: هنا مدرسة يا بني.

ـ يالها من مدرسة مزدحمة يا أبي.. ما هذه المدرسة يا بابا؟

ـ هل تستطيع أن تُفهمه؟.. هذه مدرسة.. مدرسة عادية جداً.. على الأغلب مدرسة للفن..

في هذه المرة بدأت الفتاة الصغيرة تسأل:

ـ إن طلبة هذه المدرسة كلهم كبار يا أبي... كلهم ذوو شوارب كبيرة.

الصبي: ـ هناك أولاد صغار أيضاً.. عندما سأكبر يا أبي سأدخل هذه المدرسة.

قالت أمه: اخرس.. بالله عليك امشِ أيها السيد السائق.

ـ الطريق أمامنا مغلقة ياسيدتي.

الصبي: ـ ولماذا لا أدرس في هذه المدرسة.. وتمسك بقراره.. أنا سأقرأ في هذه المدرسة.

في تلك اللحظة ـ يفتح باب المنزل نصف فتحة.. فيرى الأطفال النسوة الموجودات داخل المنزل.

ـ آ آ.. فيها بنات أيضاً... عندما سأكبر سأدخل هذه المدرسة يا أمي؟

ـ اغلقي فمك يا قليلة التربية.

ـ ماذا يا أمي؟

نتقدم ثلاثة أمتار أخرى. وتقف أمام المنزل الذي وقفت أمامه امرأة بدينة وتصرخ بأعلى صوتها للواقفين أمام الباب:

ـ ولك أيها المضروبون.. هل تموتون إن انتظرتم خمس دقائق أخرى.

الولدان يسألان؟

ـ بابا هل هذه المرأة... مدرسة؟.. أو معلمة.

فهي تشتم هؤلاء الرجال؟..

قالت العجوز التي لم تعرف بعد مكان وجودهم:

ـ ولك عيني.. ما نوع هذه المدرسة؟.. نساء كبيرات... آ آ آ... اسمحوا لي. أنا لم أر مدرسة في حياتي هكذا.. هل هنا جامعة.. وما نوعية هذه المدرسة ياترى؟

ـ فهِّمها أن كنت تقدر.. فهمها إن كنت تقدر.

وما أن ذكرت المرأة الشابة لوالدتها قصة الزقاق..

بدأت العجوز تصرخ بأعلى صوتها..

ـ أليس عيباً عليك أن تأتي بنا إلى هذا الزقاق.. أيها السائق؟. هيا

ارجع أقول لك.. ارجع بسرعة.. العمى. انظروا هذه الرذالة.. إنهم يقفون وسط الطريق؟!

ـ بالله عليك اسكتي يا أمي.

ـ لا أحد يستطيع أن يسكت.. لكل واحد منا ناموس وشرف يا ابنتي.

تتقدم السيارة بعض الأمتار الأخرى. قالت الفتاة الصغيرة عندما شاهدت النساء العاريات من خلال أحد الأبواب المفتوحة.

ـ آ آ .. لقد فهمت... هنا مدرسة «باليه».

ـ لا باليه ولا ماليه.. هنا مدرسة للجمباز.. أليس كذلك يا أبي؟

كان الأب محتاراً.. تكلمت العجوز.

ـ لننزل.. وتمسكت بقرارها.

صهرها: اسكتي يا أمي.. إلى أين ستنزلين.. انظري يميناً وشمالاً ما تحتويه هذه البيوت.

تتقدم السيارة بضعة أمتار أخرى.. تخرج من أحد الأبواب امرأة...

وتهجم على الواقفين أمام المنزل.. تصيح وتصرخ:

ـ ادخلوا بالدور ولك.. أكون قليلة الناموس إذا أُدخلتكم ولم تقفوا بالدور.

ـ يالها من معلمة قاسية يا أبي.. هذه رئيسة المعلمات على الأغلب؟

ـ روحي ولك.. لا يقال لها رئيسة المعلمات؟

ـ طيب ماذا يقولون؟

ـ يقولون.. مديرة.

ـ اسكتوا يا أولاد..

ـ لماذا يُوقفون هؤلاء الرجال الكبار بالدور يا أبي؟

يجيبها أخوها الصغير:

ـ ألا ترين.. إنهم سيدخلون للامتحان.. إنهم يرتجفون من الخوف.. انظروا هذا الرجل.. على الأغلب لم يدخل الامتحان.. ألا ترين كيف يفكر؟

تقف السيارة أمام منزل آخر.. تصيح امرأة بصوت غليظ من خلال نافذة فيها أسلاك أو شبكة ناعمة.

ـ الدور لمن... نريد إثنين..

الفتاة: ـ هل فحصهم كتابي يا أبي؟

يتمتم الرجل بينه وبين نفسه.

ـ فهمها إن استطعت؟

تخرج السيارة من ذلك الزقاق.. يقول الولد..

ـ أنا سأدخل إلى هذه المدرسة..

الفتاة: ـ إنهم لايقبلونك هنا.. فهنا يدخلون بعد الثانوية فقط.

ـ روحي ولك.. ألم ترى هناك الأطفال في المرحلة الإعدادية أيضاً.

ولماذا لا يأخذونني.. بعد أن أقدم الامتحان..

ـ هل ذهبت إلى هذه المدرسة أنت أيضاً يا أبي؟

يمسح الرجل العرق من على جبينه بمنديل..

ـ اسكتوا بقى... يكفي.



١٩

الرجل المربوط إلى عمود الكهرباء

وجدت الشرطة الإنكليزية شخصاً مربوطاً ربطاً محكماً إلى عمود كهربائي. من هذا الرجل؟. لن أقول لكم.. من هو.. ولكن تخيلوا أن هذه المحاولة قد حصلت في استانبول.

- من أنت؟

لا جواب.. يمسك الحارس الليلي بصفارته.. بيرررر وتختلط أصوات الصفارات ببعضها.

الحارس: لقد ربطوا رجلاً ما.

يسأل الشرطي:

- من الذي ربطه؟

- لا أدري..

- هل نفكه؟

- لا.. لا تلمسه.. ربما يأتي النائب العام. لنخبر المفتش.. هل مات ياترى؟

- لا أدري.. ولكن عيناه تلمعان..

يسأل الشرطي الرجل المربوط على عمود الكهرباء.

- من أين يا ابن البلد؟

ما من جواب.

يخبرون المفتش.. يتصل المفتش.. بالمناوب الموجود في مديرية الأمن العام.

يقول المناوب الأمني..

ـ أحضروه إلى المخفر.. وتأكدوا من هويته.. ولكن خذوا حذركم... ربما يكون جاسوساً.. فيهرب منكم.

ينزعوا قيود الرجل عن عمود الكهرباء.. ويُحضروه إلى المخفر.

لنعد الآن ثانية إلى انكلترة.. الشرطيان ينزعان قيود الرجل مباشرة من عمود الكهرباء.

ـ ما اسمكم؟

ـ اسمي أرنولد ماشينك.

ينحني الشرطيان بإحترام.. أمام الرجل.. إنهم سمعوا بهذا الاسم كثيراً.

ـ سأله أحد أفراد الشرطة:

ـ هل أنت النحات المشهور أرنولد ماشينك.

ـ نعم أنا نحات..

سأله شرطي آخر:

ـ هل أنت عضو الأكاديمية الملكية في انكلترة أرنولد ماشينك.. أليس كذلك.

ـ نعم أنا عضو أكاديمي..

ـ هل تستطيع أن تأتي معنا إلى المخفر أيها السيد.. أو ننقلك بإحدى السيارات إلى منزلك؟..

ـ سأذهب معكم إلى المخفر..

هكذا.. وكما كتبت الجرائد فإن السيد «أرنولد ماشينك» النحات المشهور.. وعضو الهيئة الأكاديمية الإنكليزية.. ذهب إلى المخفر..

لنعد ثانية إلى أستانبول.. نزع الحارس والشرطي قيود الرجل من على العمود.

ـ هيا إلى المخفر..

الرجل من الأمام والشرطي والحارس من الخلف.. يصلون إلى المخفر..

يسأل المفتش الرجل:

ـ ما اسمك؟

بما أنه لا يوجد عندنا أعضاء هيئة أكاديمية.. لنقل أن الرجل من النحاتين البارزين في بلدنا..

ـ أقول لك.. ما اسمك؟

ـ حكمت ياسيدي..

ـ ماذا تعمل؟

ـ أنا نحات..

ـ ماذا؟

ـ نحات..

ـ يعني ماذا تعمل؟

ـ أنحت هياكل وتماثيل.

ـ أية هياكل وأية تماثيل؟

ـ إنسان.. حيوان.. كل ما أراه مناسباً..

لقد تعبتم بعض الشيء.. ولكن معليش.. لنعد إلى انكلترة ثانية. لأن الحادثة جرت حقيقة في انكلترة.. والحادثة في أستانبول أتخيلها فقط على أنها مشابهة لتلك الحادثة يقدم المفتش للنحات «أرنولد ماشينك» كرسياً ويجلسه باحترام.

ـ من الذي ربطكم إلى عمود الكهرباء يا سيدي؟. هل هم اللصوص؟

ـ أبداً.

ـ أعداؤكم.

ـ لا.. ربطتني زوجتي.

ـ كيف؟.. هل مسز ماشينك هي التي ربطتكم؟

ـ نعم.

ـ تلك «الليدي» المحترمة.. إنه حقاً أمر محير..

ـ ليس هناك داع للحيرة والدهشة أيها المفتش. لأنني شخصياً رجوتها أن تربطني إلى عمود الكهرباء..

ـ طيب.. ولماذا أيها المستر «ماشينك».

قبل أن نأخذ جواب النحات المشهور الإنكليزي.. لنعد ثانية إلى أستانبول يسأل المفتش النحات حكمت:

ـ من الذي ربطك إلى عمود الكهرباء؟.. هل هم اللصوص؟

ـ أبداً..

ـ من أجل سرقة أموالك.. أليس كذلك؟

ـ لا ليس معي نقود حتى يأخذوها مني..

ـ أعداؤك هم الذين ربطوك آ....

ـ من أنا.. حتى يكون لي أعداء..

ـ طيب من الذي ربطك.. هيا احكي..

ـ زوجتي..

ـ العن أمها... العمى شو في زوجات في الدنيا؟... هل ربطتك زوجتك مع رجل آخر..

ـ كلا.. لوحدها.

ـ وهل تستطيع امرأة أن تربط رجلاً إلى عمود لوحدها؟

ـ لأنني لم أدافع عن نفسي ولم أخرج صوتي.

ـ واهٍ عليك أيها الرجل المخنث.

ـ أنا الذي طلبت من زوجتي أن تربطني إلى العمود.

تراخت علائم الجدية عن وجه المفتش دفعة واحدة.. فيبدأ بالضحك..
في اليوم التالي تعلن الشرطة في إحدى الجرائد خبراً مفاده بعنوان:

ـ امرأة ظالمة ـ

«جرت حادثة فريدة من نوعها في مدينتنا.. امرأة تحمل في داخلها «السادية»، ربطت زوجها بإحكام وبحبال النشر المعروفة، مابعد منتصف الليلة الماضية بعمود كهربائي في إحدى الشوارع العامة.

تفصيلات الحادثة ستقرأونها في الصفحة الثالثة:

في الصورة العليا تشاهدون صورة عائلية سعيدة للزوج والزوجة. من خلال حياتهما الزوجية وهي ذكرى سعيدة.

لنعد ثانية إلى انكلترة... أين كنا قد وصلنا؟.. نعم.. كان المفتش قد سأل النحات عن سبب ربط زوجته له على عمود الكهرباء.. وكان جواب المستر أرنولد ماشينك هو:

ـ سيدي المفتش.. أنا إنسان فنان.. عيناي ترتاحان للمناظر القبيحة. وخاصة إذا كان هذا القبح في مدينتي.. فأنا لا أستطيع أن أتحمل أبداً.. فوظيفتي الأساسية كفنان.. هي أن أحاول جاهداً العمل على أن يشاهد أبناء مدينتي، الأشياء الجميلة والألوان الزاهية.. وأن يعيشوا ضمن هذا الجمال المتواصل.. وأساعدهم في تحقيق ذلك.. ولكن بلدية «سُتكون تسونت» ليست ذواقة أبداً.. فقد وضعت أعمدة مصابيح لاتنم عن أي بادرة للجمال أو الذوق.. مع أن الأعمدة التي رفعوها وأزالوها من أمكنتها، كانت مناسبة جداً لهذه المدينة. أما الأعمدة الجديدة التي وضعوها فهي ليست مناسبة أبداً لأبنية المدينة ولا لآثارها ولا لطرقاتها.. وعبرت عن وجهة نظري هذه في الصحف اليومية والمجلات. وأوضحت كل ذلك بصراحة.. لكن البلدية لم تسمع مني. ولهذا لم أرَ أن هذه الأعمدة تليق بمدينتي ولا بأبنائها.. ولكي أقدم احتجاجاً على انعدام ذوق البلدية. فقد طلبت من زوجتي أن تربطني إلى إحدى هذه الأعمدة.

تفضلوا نرجع إلى استانبول.. هنا يسأل المفتش النحات:

ـ هل أنت مجنون ولك أخي.. هل يرضى أحد أن يربط نفسه بأحد الأعمدة الموجودة في الشارع؟... هل هناك خلل في رأسك؟..

ـ لست مجنوناً..

ـ طيب لست مجنوناً.. ولكن لماذا طلبت من زوجتك أن تربطك إلى العمود.

ـ لو تسمحوا لي سأوضح الأمر لكم.

ـ هيا أفهمنا لنرى.

ـ ياسيدي إن مدينة أستانبول هذه لا تريحني أبداً.

ـ الله.. الله.. ولكن ياأخي الجميع يريدون أن يعيشوا في أستانبول، ويريقون دماءهم في سبيل ذلك. إذا كانت هذه المدينة لاتعجبك، اركب سيارتك وارحل من هنا.. وماهو هذا الشيء الذي يزعجك في هذه المدينة «استانبول».

ـ أشكال البنايات، وعدم مطابقتها لبعضها، وانعدام التناسب، بيت شعبي عادي. يقام قربه بناء من تسعة طوابق... ثم هذه الألوان القذرة.. والأزقة الضيقة. والأرصفة القبيحة.. أية واحدة منها أوضحها لك.. لست أدري؟

ـ انظروا إلى هذا الرجل. ولك أخي.. وما دخلك أنت في كل هذه المسائل... هل أنت رئيس للبلدية؟

ـ يا سيدي إن عيناي لا ترتاحان لهذه المناظر.

ـ هم م م .. لقد فهمت.. أنت بحاجة إلى ربط في مكان آخر وليس على عمود الكهرباء.. ياسيد سليمان.. خذ أوراق هذا الرجل. واكتب ضبطاً.. لنرسله إلى الطبيب الشرعي.

الآن نحن في انكلترة.. إن احتجاج النحات الإنكليزي المشهور وعضو الأكاديمية الملكية البريطانية.. كان في محله وأعطوه الحق في ذلك، وتم إعادة الأعمدة القديمة إلى أماكنها..

وعندنا.. عندنا.. ها.. لا تحدث أمثال هذه الأمور.. فعيون النحاتين لا تتأذى من المناظر الشاذة.. ولا يحق لهم أن يربطوا أنفسهم إلى الأعمدة.. طيب وماذا حدث للنحات الذي حقق معه؟. ستعرفون ذلك في خبر نشرته إحدى الجرائد بعنوان القبض على مجنون).

تم القبض على شخص في إحدى شوارع المدينة وقد ربطته زوجته في أحد الأعمدة الكهربائية احتجاجاً.. لأن عينيه لا ترتاحان لمنظر المدينة.. وبعد القبض على هذا الشخص والتحقيق معه، حولته الشرطة إلى الطب الشرعي.. وتأكد لدى المعاينة أنه مجنون.. فتم نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية..



٢٠

ومن أين هؤلاء أيضاً

حتى أنكم لا تعرفونني؟. وربما تعرفون إنني من حي راقم /قاسم باشا/. يومها كنت أعمل صانعاً في إحدى ورش بناء السفن.. وكنت أقبض في الأسبوع ثلاث ليرات ونصف.. وما يعني ثلاث ليرات ونصف.. تأكل.. وتأكل ولا تستطيع أن تصرفها.

فإذا ما ذهبت مساء السبت إلى أحد الملاهي الموجودة، وهو ملهى الجمهورية في سوق السمك في باي اوغلو. كنت أعود ثملاً من الدرجة الأولى.

كنا نسكن في البيت المقابل لبستان «يحيى كاهيا»، لكننا لم نكن لوحدنا في ذلك البيت المؤلف من طابقين.. بل كنا خمس عائلات. أية غرفة تفتحها في ذلك البيت تجدها ممتلئة.

لقد استفاق حبي الأول في هذا البيت. كانت حبيبتي واسمها زبيدة تقارب السادسة عشرة من عمرها. تعمل في إحدى الورش التي تصنع العلب المعدنية. براتب اسبوعي مقداره ليرتان ونصف الليرة، لم أر في حياتي شفاهاً كشفاهها.. كنت أحب شفاهها التي خلقت لأجلي فقط..

لو عصبوا عيوني وتركوني أقبل ألف فتاة.. كنت أعرف شفاه زبيدة من بين هذه الشفاه. لشفتيها رائحة الشكولاته.. هل تعرفون لماذا؟. لأن أحمر الشفاه الذي نعرفه حالياً لم يكن موجوداً آنذاك.. وربما لم نكن نحن نعرفه أو نعرف أنه موجود، ولهذا كانت «زبيدتي» تمسح شفتيها بورق الشكولا الأحمر.. لتصبغهما. فقد كان طعمها من أجلي ولونها من أجل زبيدة.

كان أهل زبيدة يسكنون الطابق الأول مقابل غرفتنا.. والدها ووالدتها وأخواها الاثنان. ثم انتقلوا منها إلى مكان آخر لأن أجرتها كانت غالية بالنسبة لهم. ولم أستطع رؤية زبيدتي بعد ذلك أبداً.. لكن طعم شفتيها بقي في فمي.. وهذا لا يعني أنني لم أجد فتاة شفتاها تناسب شفتي. لقد وجدت واحدة أخرى اسمعوا كيف حصل ذلك؟

طوال حياتي لم أتعرف على حياة المجتمعات الراقية سوى مرة واحدة فقط لاغير. عندما دخلت أكبر وأشهر المجتمعات الراقية «السوسياتية». فلو أني كنت مذبذباً في حياتي لأصبحت في مقام عال جداً الآن. ولأصبحت أنا الآخر من العائلات «السوسياتية» العالية المركز. لأن كل أصدقائي في تلك المهنة أصبحوا على مستوى عالٍ من الثراء والكبرياء. ولم يبق واحد منهم دون سيارة أو عمارة.

فقد حدث أن أحد الموظفين في ورشة بناء السفن طرح على والدي الفكرة التالية:

ـ أنت تسيء لهذا الولد.. إنه من الجواهر النادرة.. ابنك هذا.. يجب أن تعلمه ليصبح رجلاً حقيقياً..

لو التقي بذلك الرجل الآن.. لأكلته نيئاً.. دون رحمة ولا شفقة.. لأنه المسبب الوحيد لكل الآلام والمعاناة التي اتحملها كل يوم، طبعاً أنا الآخر مذنب إلى حدٍ ما.. لقد درست حتى الصف العاشر.. وبعد ذلك.. بدأت التسكع هنا وهناك.. من الجرائد.. إلى محاسب في بعض الشركات التجارية.. وبقيت فترة أبيع أقلام الحبر أمام البريد.. ولم يبق لون من الألوان الحياتية إلا ومارسته. ولم أجد طريقي الصحيح إلا بعد مضي خمسة وعشرين عاماً في عملي القديم.

كان معلمي قد تعهد عملاً لإحدى العائلات الغنية المترفة وهو تركيب شوفاج في قاعات الاجتماعات لأحد النوادي الاجتماعية. وكان يعمل معه

خمسة عمال.. وفي الليل كنا نام في إحدى الغرف التي قدمها لنا النادي.. حتى إكمال العمل. وكنت أحاول جاهداً مشاهدة ذلك الإنسان الارستقراطي الذي سمعت عنه كثيراً ولم أره شخصياً، وكم رغبت بمشاهدته، كنت أحسب هؤلاء الارستقراطيين أناساً ليسوا مثلنا.. لهم ثلاثة آذان وأربعة عيون وفمان.. أي أنهم مخلوقات عجيبة وغريبة ومن نوع خاص.

هكذا كان يتراءى لي.. بدأت أراقبهم جيداً.. في الليالي... ألبس أحسن ماعندي وأدخل بينهم حتى باب القصر دون أن يتعرف علي أحد. وبما أنني كنت أبقى بعيداً عنهم إلى حدٍ ما. ولم يشعروا بي، أنني غريب عنهم. كلهم على حد سواء، شواذ في لباسهم وأحاديثهم ونظراتهم.. كل شيء فيهم كان يلفت النظر شئت أم أبيت.. وسأحاول الآن أن أسرد لكم حادثة واحدة من مئات الحوادث التي رأيتها فيهم. عندما يلتقون وجهاً لوجه.. ترى اللطافة تغمر أحاديثهم.. ولكنهم لا يترددون في تناول الغائب منهم وفضح مساوئه وسلوكه.. وعندما يلتقون ببعضهم.. سواء كانوا رجالاً أم نساء كانوا يتحدثون على الشكل التالي:

- آمان يا سيدي.. ماهذه المحفظة الصغيرة، تُرى من أين هي؟

- باريسية.

- ما هذا «الحذاء» الذي تنتعلينه ياهانم.. من أين هو ياترى؟

- لندني.

في بداية الأمر لم أكن أفهم مغزى أن تكون المحفظة باريسية. والحذاء لندنياً.. غير أني بدأت أفهم الموضوع.. يعني أنها جلبت من باريس أو لندن.. كل من يقابل الآخر.. كان يسأل نفس السؤال.

- آمان يا سيدي.. ما أجمل ربطة عنقك هذه.. من أين هي يا ترى.

- نيويوركية.. آه.. وهذه الأزرار الجميلة على كمّ قميصك أراها لأول مرة.

- إنها من روما يا سيدي.

هذه هي المرادفات التي كانت تتردد في حياة الارستقراطيين..

فإن أردت التعرف على الارستقراطيين فمن خلال هذه الأسئلة والأجوبة.

لقد وقع نظري في النادي على سيدة تدعى «تولين».. أما الذنب فلم يكن ذنبي على الإطلاق.. لقد جاءت الرزقة لوحدها أمامي.. وإلا فمن أنا.. حتى أفكر بسيدة ارستقراطية؟ هذا من رابع المستحيلات.

لقد أقيمت حفلة في النادي.. وبما أننا في شهر آب.. كان جميع المدعوين في الحديقة.. تحت الأشجار الكبيرة أما أنا فكنت أحاول الابتعاد قدر المستطاع عن الأماكن المضيئة.. فقد كانت المصابيح المتعددة الألوان تملأ المكان. في الحديقة وهي معلقة على أغصان الأشجار.. وكما قلت.. كنت أبقى دائماً في الأماكن المعتمة تقريباً.. لا أظهر نفسي على أحد.. كنت أتنقل من ظل شجرة إلى ظل أخرى أتنصت إلى الأحاديث العادية.. والآهات المكبوتة والأنات التي تصدر من بين الأشجار التي لا يصل الضوء إليها..

وبينما كنت أنزل إلى الشاطىء ببطء. سمعت صوت شجار عائلي.. ومن بين الأصوات الصادرة عرفت صوت «تولين» وصوت زوجها.. كان زوج تولين يوبخها.. بكلمات قاسية..

ـ لقد نلت من شرفي وكرامتي واعتباري ووضعتيني في أسفل السافلين. أنت تخدعينني.. على الأقل اخدعيني مع رجل أغنى مني.. وأنت كما تعلمين أن رأسمالي أكثر من مليون ليرة.. ألا تخجلين من تصرفك المعيب هذا عندما تخدعينني مع ذلك الإنسان الذي لم يدخل عالم المال والعمل، إلا منذ مدة قصيرة.. ولايملك سوى بضع مئات الألوف من الليرات.

قالت تولين وهي تأخذ نفساً عميقاً:

ـ لقد خدعني.. قال أن معه خمسة ملايين ليرة.

ـ كم هو قليل الشرف والناموس.. هذا.. يا عالم يا هو.. كم من قليلي الأخلاق في هذا العالم... ! أنت تحسبين كل الناس مثل زوجك..

ألا يخجل هؤلاء الناس.. عندما يخدعون امرأة مسكينة بزيادة رؤوس أموالهم كذباً ونفاقاً..

تكلمت تولين بصوت امرأة مسكينة مخدوعة.

ـ يملك الملايين الخمسة وفي الوقت نفسه له قريب السيد الفلاني.. والتعرف عليه يساوي عشرة ملايين ليرة.

ساد الصمت بعض الوقت.. وعاد صوت تولين ثانية:

ـ البركة فيك يا زوجي العزيز.. لقد أخبرتني مبكراً.. وإلا من يدري.. كم مرة كان سيخدعني ذلك الرجل قليل الناموس..

قال زوجها:

ـ أنا لا أحد يقدر على خداعي.. لقد فهمت الأمر بسرعة وِلكْ.

ـ أنت داهية يا زوجي.. ولكن والله.. لم يخدعني سوى عدة مرات..

ـ ليس الأمر كما تتصورين يا ضناي.. أنا لا أعاتبك لأنه خدعك.. ولعدة مرات... هذا أمر عادي.. ولكن ما أخشاه.. إذا سمع أحد ما بخيانتك لي مع شخص رأسماله أصغر من رأسمالي.. فموقفي العملي سيهبط إلى الحضيض.. لأنهم سيحسبونني قد أفلست.. ولهذا السبب تخونينني... أنا خائف من هذا الشيء.. وإلا هل من المعقول أن أزعجك يا حبيبتي؟..

عندها بدأت تولين بالصراخ في وجه زوجها..

ـ ولكن الذنب دائماً ذنبك..

ـ لماذا؟

ـ وما أدراني.. برأسمال جميع الموجودين ورجال الأعمال. ومنزلتهم المالية والاجتماعية.. أنت لم تقل لي ولم تعرفني بالأغنياء وبرأسمال كل واحد منهم.

ـ هذا صحيح.. الآن سأحاول أن أوضح لك شيئاً... ضعي ذلك

في عقلك..

بدأ زوجها.. يعدد لها الرجال الذين هم أغنى منه مالاً وجاهاً ومركزاً..

ـ والأهم من بين كل هؤلاء.. رجل اسمه «أحمد قَبَلاق». ربما سمعتِ باسمه أليس كذلك؟. إن هذا الرجل غني بحيث يستطيع أن يشتري جميع الموجودين هنا.. وهو مغمض العينين..

ـ لم أره أبداً.. ولهذا لا أعرفه..

ـ سأعرفك عليه عند أول فرصة.. يجب أن تتعرفي إلى «أحمد قبلاق» هذا.. وعن قرب..

مرة ثانية ساد بعض الصمت.. ثم قال زوجها:

ـ تولين.. يا ضناي.. اذهبي الآن إلى صالة القمار.. قامري والعبي بمبالغ كبيرة.. حتى يعرف الجميع أنني لست مفلساً.. ولا نستطيع أن نوقف القال والقيل عنا إلا بهذه الطريقة. يجب أن تصلحي خطأك بنفسك...

ـ تكرم يا زوجي.. سأصلح الأمر حالاً.

ـ يجب أن تخسري في أتفه لعبة أكثر من عشرة آلاف ليرة.. وهذا بحد ذاته يبين ويظهر أن أموالنا وأعمالنا على مستوى عالٍ من الضخامة.. هل فهمت ذلك؟. ومن أجل هذا السبب فقط يجب أن تضحكي وتمزحي بعد كل خسارة وكأنه ليس في الأمر ما يزعج. ثم ترقصين.. هيا يا زوجتي..

مرت تحت الأشجار.. وعندما أصبحنا وجهاً لوجه، صرخت صرخة صغيرة..

ـ آي...

ـ هل خفت يا هانم؟..

ـ آمان.. والله خفت كثيراً.

ـ عفواً لا تؤاخذيني.. أنا متأثر جداً.. لأنني أخفتك.. وأظن أنني قد تعرفت بهذه الوسيلة إلى أجمل امرأة في استانبول.. أو «أظن أنني نلت

شرف التعرف على أجمل امرأة في أستانبول بهذه الوسيلة»..

لقد تعلمت مرادفات وكلام الارستقراطيين هناك في النادي.. فبمجرد أن تتعرف إلى سيدة ما. من أولئك «الساسياتيات» يجب أن تبدأ وصف ومدح جمالها.. من شعرها إلى وركها.. إلى ركبها.. وخاصة إذا كان هذا المديح وهذا الإطراء أمام زوجها.. تكون سوسيونياً أكثر.. وعندها.. وكأن المرأة تقول لزوجها:

ـ «انظر إلى قيمتي.. واعرف من أنا أفهمت». وكأن زوجها يقول في نفسه: «انظروا إلى قيمة زوجتي وجمالها فتكون ضربت عصفورين بحجر واحد.. فينتفخ الاثنان من الغرور والبطر..

قالت تولين: أغدقت علي بالمديح يا سيدي.

ـ لا.. والله... أنا لم أقل إلا الحق.. فجمالك على رأس كل لسان. عفواً.. لقد نسيت أن أعرفك عن نفسي.. أنا «أحمد قبلاق».

اهتز جسم تولين فجأة من المفاجأة.

ـ إذن هو أنتم؟

ـ نعم.. الجو جميل جداً هذه الليلة؟

ـ نعم.. أنا لا يعجبني البقاء بين الناس..

ـ إننا نشبه بعضنا كثيراً.. إن روحينا واحدة.. ولي كبير الأمل أننا سنفهم بعضنا في مدة وجيزة.

تفاهمنا في مدة أقصر من المدة التي كنت قد وضعتها لنفسي، لم تمض عشرون دقيقة حتى كنا في غرفة تولين.. ولكي لا تعرفني. أنني من خارج الحياة «السوسياتية» كنت دائماً أتحدث بلغتها..

ـ آمان أيتها السيدة تولين كم هي محفظتك رائعة.. من أين هي؟

ـ إنها باريسية..

كانت تولين قد قذفت بمحفظتها جانباً.

ـ إن معطفك جميل فوق العادة.. من أين هو يا ترى؟

ـ لندني..

كانت تولين قد خلعت معطفها أيضاً.

ـ وهذا الحذاء الجميل.. من أين؟

ـ من مدريد..

خلعت حذائي أيضاً.

ـ آمان وهذه الشلحة.. من أين؟

ـ إنها بيروتية..

ـ وهذه الجوارب؟

ـ من بيروت أيضاً.

ـ وهذه الكورسا من أين يا حلوتي.

ـ برلينية..

ـ وهذه السوتيانة من أين يا ضناي؟

ـ من روما..

ـ عندما وضعت شفتي على شفتيها.. كاد أن يغمى عليّ. هذه الشفاه غير كل الشفاه:

ـ ولك.. لا تمثلي علي.. هذه الشفاه من «قاسم باشا».

ـ أنا أيضاً عرفتك.. هذه القبلة أيضاً من قاسم باشا.. إن كل الرجال الموجودين هنا لا يقدرون على تقبيلي بهذه الطريقة...

كنت قد التقيت بزبيدتي من قاسم باشا باتيكيت سوسياتية تحت اسم تولين.



٢١

ترجمة ذاتية

أرسلني إليك السيد عباس يا سيدي.. وارسل لكم معي بطاقته.. تفضلوا.. ينظر إلى البطاقة.. سأعطيكم فكرة عني ياسيدي.. إن السيد عباس يرسل لسيادتكم السلامات والتحيات. لقد أرسل لكم سلاماً خاصاً جداً.. تقولون أي سيد عباس هذا؟. ألم تعرفوه؟.. إنه صديق صدوق جداً لكم ياسيدي.. إنه صديقكم القديم.. يعرفكم جيداً.. ألم تتذكروه بعد؟. عجيب!!.. إذا لم تتذكروه.. هذا جائز ياسيدي.. فالشرود والنسيان يحدث معي أحياناً بحيث لا أستطيع أن أتذكر حتى أبي.. ولكن مهلاً.. سأجعلكم تتذكرونه.. إنه لدى سيادتكم ذكرى جميلة.. في إحدى الليالي.. قص علي ما حدث.. وضحكنا كثيراً ساعتها. كنتما قد التقيتما في ملهى «يورغو» في باساج.. طبعاً.. تذكرتم.. وبعد خروجكما.. ذهبتما إلى منزل البانسيون «ناريمان» وحدثت معكم حادثة جميلة وحلوة.. في تلك الليلة، داهمت ضابطة الأخلاق العامة المنزل.. ومن خلال التحقيق تبين أن إحدى الفتيات.. هي رجل.. وكانت دهشة سيادتكم شخصياً عظيمة لهذا الأمر.. لأنكم كنتم قد وضعتم عيونكم عليها في تلك الليلة.. وقلتم أنتم بالذات يومها «آمان.. لقد كان قدوم ضابطة الأخلاق». خيراً السيد عباس بالذات قصها عليّ.. وهو يضحك ومن كثرة الضحك.. كانت الدموع تنهمر من عينيه. هل تذكرتم.. الآن يا سيدي؟.. كيف.؟.. ألم تتذكروه بعد.. ومرة تقابلتما عند افتتاح أول معمل برأسمال أمريكي. وبعد الاحتفال. وتناولكم كمية كبيرة من

الطعام.. شكوتم سيادتكم من تعب في المعدة... وكذلك شكا السيد عباس.. من مغص حادٍ في أمعائه.. ويبدو أنكم لم تتذكروا بعد.. هذا صحيح يا سيدي.. والله إنني أعلم بالكثير من الحوادث المشابهة التي جرت معكم يا سيدي.. وأية حوادث ستتذكرونها؟.. إنها حكمة إلهية.. حتى أنكم قلتم في إحدى المرات «إن معدتي تتعب دائماً بعد كل حفلة طعام». نعم يا سيدي.. يجب أن تعرفوا السيد عباس على أكمل وجهٍ.

لأنه أقرب صديق لسيادتكم.

كما أنه جرى بينكما خلاف حاد وحرب باردة حول مسألة سياسية بحتة.. يمكنكم أن تتذكروها جيداً... في إحدى اجتماعات الهيئة العامة للحزب في المحافظة.. كان الحزب قد انشطر إلى قسمين.. والسيد عباس كان ضدكم.. على ما أعتقده لأن سيادتكم كنتم متورطين في موضوع الاستملاك.. طبعاً هذا قال وقيل ليس إلا، أليس كذلك؟. هل فهمتم الأمر؟. وعندما جاء السيد الكبير من أنقرة.. طلب منكما وضع النقاط على الحروف وتتصالحوا.. وقد تفاهمتما يومها. من جراء تدخل ذوي النوايا الحسنة. تقولون ماذا يعمل؟.. إنه يعمل كل شيء. الجميع يعرف عباس بك بمجرد سماع أسمه.. إن عمله والحمد لله ممتاز جداً.. وهو منذ أيام منهمك في عمله ولا يجد فراغاً للراحة.

إنه يعمل أعمالاً إضافية خارج أعماله الأصلية.. من دراسة وضع الأملاك إلى الاستملاك.. والأعمال التجارية «الكومسيونية» والسياسية..

طبعاً كان قد اشترى داراً كبيرة في «آف سراي». لا أدري إن كنتم تعرفون ذلك.. وهو منهمك الآن في إخراج جميع المستأجرين من البناء. لأنهم يدفعون أجراً زهيداً. ولا فراغ عنده مطلقاً... حتى أنه كان يقول: كيف سأذهب إلى مؤتمر الحزب .. طبعاً.. وسيادتكم ستسافرون إلى أنقرة.

إنني أزعجكم من أجل عمل بسيط يا سيدي.. فالسيد عباس قال لي: اذهب إليه وأعطه هذا البطاقة.. ولا تتدخل في شيء آخر.. فهو سيوفر لك العمل المناسب.. والأمر الآن رهن إنسانيتكم.. طبعاً أنا الآخر لن أقف مكتوف الأيدي تجاه كرمكم.. أنا إنسان جيد لأنني رضعت حليباً صافياً ونقياً.. تستطيعون أن تسألوا كل الناس عني.. الحقيقة إنني رضعت حليباً جيداً.. يقال يا سيدي أن فلاناً رديء لأنه رضع حليباً نيئاً.. أما أنا فلست كذلك. فوالدتي توفيت بعد أن ولدتني مباشرة ولهذا لم أشرب حليباً نيئاً على الإطلاق.. لأن جدتي لأبي ربتني وسقتني حليباً بقرياً صافياً على أكمل وجه يا سيدي.. ماذا. أتسأل عن عملي؟. إنني أحسن القيام بكل الأعمال.. وأنجزها على أفضل وجه.. ولست كالآخرين الذين يقولون.. أجيد عمل كذا، وأثناء التنفيذ يتبين كذب ادعائهم. أما أنا لا أقول ذلك أبداً.

لقد طلبتم مني قصة حياتي يا سيدي وها إنذا أقوم بسردها على مسامع سيادتكم.. لقد ولدت في «لنغا» عام ١٩١٣. ألا تريدون مكان ولادتي ياسيدي.. إذن تطلبون فقط ما أستطيع أن أقوم به من الأعمال.. على الرأس والعين ياسيدي.. ولكن توقفوا.. في البداية. وقبل كل شيء.. نعم.. نعم... أول عمل قمت به هو بيع الأشياء المطلوبة للرجال الذين يحبون مساعدة الآخرين.. وآخذ نسبة عشرين بالمائة. لقد كانت مبالغ رائعة بالنسبة لتلك الأيام.. وبعد ذلك يا سيدي.. تركت ذلك العمل بسبب رجل حقير ملعون كان يعاديني في الدائرة التي كنت أشتري منها الأشياء.. ثم بدأت العمل في «الدفترتارية» كعامل مأجور.. وهناك أيضاً يا سيدي.. لم أستطع الاستمرار في العمل بسبب المدير ذي الطباع السيئة.. ثم عملت كاتباً في أحد الفنادق.. ولأن صاحب الفندق إنسان عصبي جداً.. أجبرت على ترك العمل هناك أيضاً. ولكي يكون حديثي كاملاً.. وبتوصية من أحد الأصدقاء عملت حارساً في إحدى مراكز الجباية..

ولكن الاتهامات كانت كثيرة هناك أيضاً. فتركت العمل لأنني اتهمت بشيء ما.. بعد ذلك.. أين عملت يا ترى؟

ها.. ها.. دخلت إلى الهيئة العامة للمحافظة على الفتيات الشابات.. كان عملاً جميلاً ولكن.. تركت العمل هناك أيضاً لعدم كفاءة المفتش المسؤول ومراوغته.. ثم ياسيدي.. عملت في مخزن.. لا.. لا.. هذا كان مستقبلاً.. فقبل المخزن كنت أعمل محاسباً في إحدى الشركات.. ولانعدام أخلاق المحاسب.. تركت العمل أيضاً حيث عملت في المخزن.. غير أن صاحب المخزن كان قليل الناموس حيث أنني لم أستطع التحمل كثيراً. تركت العمل هناك أيضاً من أجل كرم خاطره.

في هذه المرة عملت قاطعاً للتذاكر في سينما القمر.. ثم تركت العمل هناك لغباء المدير.. وعملت في مكتب لأحد المحامين.. ولم أعد أتذكر لماذا تركت العمل هناك.. هل نكتفي بهذا القدر يا سيدي.. على الرأس والعين.. يا سيدي.. إذن فقد أخذتم عني فكرة ما.. فاشكركم جزيل الشكر. هناك أناس شرسون جداً يا سيدي، ومن أجل ذلك كله.. أكرمتم ياسيدي سأعمل كل ما تطلبونه مني.. ماذا.. السيد عباس.. أليس كذلك، هل تذكرتموه.. إنه يكنُ لكم الاحترام والتقدير ياسيدي.. حتى إننا أنا والسيد عباس.. قمنا في إحدى الليالي.. أمركم سيدي على الرأس والعين.. لن أقصه عليكم.. هل تقول عنواني؟.. عنواني هو.. بيازيد.. محلة هياراغا.. البئر الذي لانهاية له.. نمرة ٣١. نعم.. ٣١.. إذن ستخبرونني برسالة؟.. لا تتعبوا أنفسكم أنا أتشرف بزيارة أخرى لمقامكم.. أمركم يا سيدي.. لن أمر.. سأنتظر رسالتكم على الرأس والعين. رسالة.. إذا ما حصل شيء ما...

كيف.. أليس هذا المكان هو مقر حزب محبي الحرية.. توه.. أتقول هنا مقر حزب السلامة القومي... يا الله.. إذن جئت هنا بالخطأ.. إنه

الشرود يا سيدي. فالسيد عباس.. قد أرسلني إلى حزب محبي الحرية.. وجئت خطأ إلى حزب السلامة الوطني.. نعم يا سيدي.. كله واحد يا سيدي... فالمقصد من تأسيس الأحزاب هو رفع شأن الوطن والأمة.. أليس كذلك؟. يا سيدي.. ماذا تعني.. حزب محبي الحرية أو حزب السلامة الوطني.. كله واحد... الكل يؤدي إلى باب واحد يا سيدي.

صحيح يا سيدي.. القصد.. طبيعي جداً.. هو خدمة هذا الوطن.. إذن أعجبتكم قصة حياتي.. هل ستقبلونني.. أدامكم الله.. هل تقول بالرسالة.. ستبعثون برسالة إلى عنواني..

يا ترى.. هل أستطيع أن أخذ منكم بطاقة السيد عباس إذا كنتم لستم بحاجة لها لأنني رأيت نجوم الظهر حتى أخذت منه هذه التوصية.. آه لو تعرفون يا سيدي.. نعم.. ربما في مكان آخر.. أشكرك جزيل الشكر. أطال الله عمركم يا سيدي.. إلى اللقاء..



٢٢
مشفى الحب

ـ ألو.. أليس هذا المكان جريدة «فرياد وفيغان».

ـ نعم...

ـ نريد.. محرر الشرطة.. السيد جعفر..

نادى سكرتير الجريدة على جعفر.

ـ جعفر.. جعفر... يريدون التحدث معك.. من مديرية الأمن.

وضعتُ السماعة على أذني.

ـ تفضلوا.. أنا جعفر بيزغيتران// محرر العدلية والشرطة في جريدة «فرياد وفيغان».

ـ مرحباً ياسيد جعفر.. ستقوم الضابطة الأخلاقية بمداهمة ليلية. فقد أخبرنا الجرائد الأخرى أيضاً. إذا كنت ترغب بالحضور.. فنحن بانتظارك الساعة التاسعة مساء في مديرية الأمن.

ـ لأي منزل ستكون المداهمة؟

ـ منزل مدام آنجلين..

ارتعشت فجأة..

ـ شكراً لأنك أخبرتني.. كي لا تظهر رذالة ما.

ـ ولماذا؟

ـ لأنكم كنت ستداهمونني. فقد كنت ذاهباً.. هذا المساء لإجراء

ريبورتاج مع مدام آنجلين..

ـ أنت تعرف.. إذا أردت تعال معنا.. أو أسبقنا إلى هناك وانتظرنا عندها.

ـ سأذهب معكم.. ألم تداهموا منزل مدام انجلين.. الأسبوع الماضي.

ـ داهمنا بنايتها في «ماجكا» وأغلقنا ذلك المكان... إنها تعمل الآن في بناء حي شيشلي.

ـ تكرم سأكون عندكم.

قال لي سكرتير الجريدة.

ـ أرجوك ياسيد جعفر أن تسجل وتكتب كل ما تشاهده.

ـ لقد فهمت عليك.. من الطبيعي أن أكتب فقط ما أشاهده.

ـ إن تهويل الأمور وتضخيم الأحداث أحياناً... لا نفع لهما. كلهم يضخمون الأحداث.. رئيس الكتاب.. ورئيس قسم الرياضة.. ومحمد أنقرة. ومحرروا السياسة.. على الأقل أنتم لا تضخمون الأحداث ياسيد جعفر.

قلت.. لن أفعل ذلك..

ـ لي رجاء آخر عندك.

ـ استغفر الله.

ـ زودني بالأخبار بسرعة ياسيد جعفر.

ـ على الرأس والعين.

كنت في مديرية الأمن الساعة التاسعة تماماً.. وكان هناك خمسة محررين وخمسة مصورين آخرين.. ركبت السيارة الحمراء التابعة للشرطة مع ستة من ضابطة الأخلاق العامة. وبدأنا بالتحدث في السيارة.

فقال أحد المحررين:

ـ بعيد عنكم.. إنني مصاب بالكريب.. أشعر أن جسمي كله يتكسر.

قال رئيس الضابطة:

ـ أنا الآخر أشكو من الروماتيزم.. فمنذ عشر سنوات وأنا أعاني من هذه «العلة».

أحد المحررين:

ـ أعرف ذلك جيداً.. أنا الآخر شكوت منه كثيراً.. لم أستطع القضاء عليه أبداً لكن أحدهم أعطاني وصفة.. شفيت على أثرها بسرعة..

ـ آمان ولك يا أخي.. ماهو...؟

ـ هل تعرفون النحل.. النحل.

ـ نعم.

ـ ولكن ليس نحل العسل ها.. بل ذبابة الحمار.. وخاصة المعمرة منها. تذهب إلى ثقب خليلة ذبابة الحمار.. وتغطي كل جسمك جيداً عدا ساقك المصاب بالروماتيزم وتدخله في ثقب الخلية.. تأخذ في يدك غصناً كثيفاً. وتدخله إلى الوكر وتخرجه حتى يهيج الذباب على أكمل وجه.. إن ذباب الحمير يشبه إلى حدٍ ما الرجال العظام.. إذا غضبوا لسعوا.. فيهجمون على ساقك بإبرهم المسمومة.

ـ وهل يؤلم كثيراً.

ـ والله من هذا القبيل.. يؤلم كثيراً.. ولكن بما أنني صحفي لم أحفل كثيراً بإبر هذه النحلات.. ولست أدري إن كان أحدٌ من ذوي الدخل المحدود يستطيع تحمل هذا الأمر مثلك..

ـ وهل يذهب الروماتيزم والألم بعد هذه العملية.

ـ إنه يذهب يا أخي يذهب.. يذهب دون عودة.. إن ساقي اليسرى

كانت مصابة بالروماتيزم. ولا أستطيع أن أحركها أبداً.. ألا تتذكرون العربات التي يجرها بغلان.. أحد البغلين يتحرك بسرعة.. والآخر لا يتحرك.. فيتحمل الأول كل التعب ويبقى البغل الثاني مرتاحاً على حساب البغل الغبي الذي يعدو بسرعة وقوة.. ساقي اليسرى، كانت البغل الذي لا يتحرك، أما ساقي اليمنى فكانت تتحمل الوزر كله أثناء تحركاتي وتنقلاتي.. ولكن بعد لسع النحل.. أصبح العكس تماماً.. أصبحت ساقي اليسرى تعدو وتسحب وتجر أكثر من اليمنى.

قال أحد عناصر الأمن:

ـ آمان.. ولكنه صعب للغاية.

ـ ماذا تقول ولك أخي.. كنت أمشي نحو اليمين دائماً.. وبعض الأحيان كنت لا أستطيع أن أحافظ على توازن جسمي.. كنت أقع على جنبي اليمين.. أو أدور من تلقاء نفسي نحو الخلف مثل الكرة.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك وجدت أن ساقي اليسرى قد أصبحت كسفينة لا تخشى العواصف بسرعتها وقوتها.. وعندما وضعت في جيبي الأيسر.. القانون الجديد الذي صدر مؤخراً.. خفف سرعتها بعض الشيء.

في الوقت الذي بدأ فيه الجميع يضحكون أخرج عنصر الأمن من جيبه اليسرى القانون الجديد وقال:

ـ انظروا.. هذا هو.

كان أحد العناصر يشكو من مسامير اللحم الموجودة في قدميه وقال متعباً.

ـ شكوى سليمان أفندي ليست شيئاً بالنسبة لما أشكو من مسامير اللحم.

لقد جربت كل الأدوية.. فلم تستطيع أزالته مطلقاً.. في السابق كنت أعمل في شعبة التهريب.. وكنت عاجزاً عن السير بسرعة بسبب هذه المسامير التي عماها الله.. ولهذا.. لم أستطع القبض على المهربين ولا بأي شكل من الأشكال لأنهم كانوا أسرع مني.. لم أقبض سوى على مهرب واحد خلال ثمانية أعوام من عملي في تلك الشعبة.

ـ ربما مسامير لحم ذلك المهرب كانت أكثر من مساميرك....

ـ لا... لم يكن يشكو من ذلك.. فقد كان أعرجاً.. فنقلوني من شعبة التهريب ووضعوني في شعبة الأخلاق العامة.

قال الشرطي الذي وصف علاج الروماتيزم.

ـ أعرف دواء لمسامير اللحم أيضاً.. إنه دواء فعال جداً (إيد بإيد) يزيله تماماً.

ـ بالله عليك.. قل يا أخي..

ـ أجلب أربعين عنكبوتاً ذكراً.

ـ نعم..

ـ على أن تكون العناكب حمراء اللون.. بعد أن تأتي بالعناكب الأربعين المذكرة، ضعها في الهاون.. واهرسها جيداً، ثم ضع ذلك المحلول المدقوق.. في أول يوم جمعة من الشهر.. عندما يكون المؤذن يصلي على النبي إيذاناً بصلاة الجمعة. وتربطها جيداً. بعد يومين على أكثر تقدير... تختفي مسامير اللحم كلياً من جلدك.. حتى أن جلدك نفسه الذي ليس فيه مسامير يزول.

ـ ولكن لم أر في حياتي عناكب حمراء أبداً.

ـ هذا صحيح لأن العناكب لاتكون حمراء أبداً.. فألوانها كما نعرف جميعاً تكون رمادية اللون.. تمسكها وتدهنها باللون الأحمر.

وكان أحد المحررين يشكو علة في قلبه فقال:

ـ أما أنا فقلبي ضعيف إلى أبعد الحدود.. لا أستطيع تحمل الانفعالات.. عندما أكون في السينما.. ويقوم رجل وامرأة يتمثيل فيلم أمامي.. يبدأ قلبي بالخفقان السريع. وعندما أشاهد امرأة عادية على البلاج أشعر وكأن قلبي سيتوقف.. لي قلب ضعيف جداً.

قال الشرطي الذي يصف الأدوية:

ـ لأن لك قلباً ليناً.. وهذا أيضاً له علاج.

ـ بالله عليك.. ماهو هذا العلاج؟

ـ خذ دماً من أحد الموظفين المحبين للوطن.. على أن يكون قد بدَّل في حيِّه أربعة أحزاب.. وعمل على الأقل عشرين عاماً في السياسة.. بمعدل ليترين.. كل صباح.. عندها سيقسو قلبك أكثر من «بوط» عساكر المدفعية.

قال رئيس عناصر الأمن:

ـ ما شاء الله.. أنت طبيب مختص من الدرجة الأولى.

قال الصحفي:

ـ في الماضي كنت طبيباً...

ـ ولماذا تركت مهنتك؟

ـ لقد أخذوا شهادتي.. لأنني لم أقتل في العام الواحد أكثر من ثلاثة مرضى.

ـ ولماذا اخترت مهنة محرر في الشرطة؟

ـ لأنه لا أحد يستطيع فك طلاسم الجرائد أكثر من الطبيب..

وصلنا إلى بناية مدام أنجليك.. التي كانت تبيع الفتيات دون رخصة. فالحديث ألهانا. فلم نشعر بطول الطريق.. ترجلنا من السيارة..

في المقدمة الرئيس.. قرع جرس باب الطابق الأرضي.. فتحت الباب امرأة تلبس قميصاً داخلياً وردياً.

سألها الرئيس:

ـ هل هنا منزل اللقاء؟...

قالت المرأة:

ـ نعم. إنه منزل «هاجر هانم».. بعد أن أغلق منزلها إثر مداهمة قبل ثلاثة أيام في حي «تارلا باشي».. فتحت المنزل وقالت... تفضلوا... قطب الرئيس حاجبيه كسيف علي المسمى «ذو الفقار»..

قالت المرأة:

ـ هل أخبر السيدة هاجر بمقدمكم.

قال الرئيس: نحن نبحث عن منزل مدام انجليك.

ـ قالت المرأة: منزل مدام انجليك في الطابق الثاني.. ورقم غرفتها أربعة وفي الطابق الثالث منزل السيدة سلمى..

قال الرئيس بصوت كأنه طلقة رصاص أزيزها يثقب الآذان.

ـ سمعاً وطاعة.

عندما أغلقت المرأة الباب.. أخرج الرئيس دفتراً صغيراً وبدأ يقرأ برامج عمله اليومي.

مداهمة منزل هاجر هانم ستكون يوم الثلاثاء.. ومنزل السيدة سلمى يوم الأربعاء.. ويوم الخميس استراحة.. يوم الجمعة ستتم مداهمة منزل السيدة هاجر في مكانها الجديد..

ثم التفت نحونا وقال:

ـ هيا يا أولاد.. نحو الرقم أربعة.. ولكن امشوا على رؤوس أصابعكم.. لا أريد ضجة على السلم أو الدرج.. رويداً رويداً..

قُرع جرس باب الرقم أربعة.. فتحت الباب امرأة.. وعندما شاهدتنا قالت:

ـ لقد جئتم بمجموعة كبيرة.. في الداخل ثمانية نساء فقط... خمسة منهن تعملن في الدوام الليلي.. ولكن الإنسان المتحضر يجب أن يعلم قبل قدومه.. !!!..

قال الرئيس:

ـ اخبري مدام آنجيل.. نحن لسنا غرباء.. لتتفضل مدام انجيل إلى هنا.

عندما رأتنا مدام انجيل.. قالت:

ـ منذ أسبوع واحد فقط فتحت هذا المكان.. لم أكن أنتظر قدومكم بهذه السرعة.. وإلا كنت نظفت المنزل على أكمل وجه.. اعذروني.. ثمة فوضى كبيرة في المكان..

هجم العناصر كالعاصفة على الأبواب.. هذه إغارة حقيقية..

قلت لمدام انجيل:

ـ شيء غريب حقاً يامدام.. الشرطة تغير على منزلك... ولم يبد عليك أي اضطراب أو حيرة أو انفعال؟

ـ ولماذا.. أنفعل أو اضطرب وليس في داخل الغرف أحد من السوسياتيات. أي من العائلات الارستقراطية.

ـ ألا تؤثر هذه المداهمات على اعتبارك وعملك.

ـ العكس تماماً... هذه المداهمات بمثابة دعاية لنا.. لأن الذين لايعرفون عنواننا يتعرفون عليه..

ـ ولكن سيغلق منزلك...

ـ غداً أفتح منزلاً آخر.. فأنا أملك أربعة منازل... لقد اقفلوا منزلاً واليوم سيقفلون... المنزل الثاني... لكنني أستطيع العمل بالمنزلين الباقيين.

ألا تعرف سبب كثرة هذه البيوت في استانبول.

ـ الآن فقط عرفت.

ـ هذا هو المنزل رقم تسعة وتسعين الذي تمت الإغارة عليه.. وعندما سيتم إغلاق بيتي سيحمل الرقم مائة.. وسأحتفل بذلك تماماً..

كان في الصالون رجلان وأربع نساء.. سألتهم:

ـ ماذا تنتظرون؟

ـ ننتظر الدور؟..

أحدهم قارب السبعين من عمره..

ـ أنت الآخر تنتظر دوراً؟

ـ نعم... وماذا تفعل يا أبتِ.. بما أنني أعمل في النهار.. فلا أستطيع الحضور إلى المعاينة إلا في هذا الوقت.

ـ هل تقول معاينة؟

ـ نعم.. نعم.. لقد أعطوني هذا العنوان.. أنا معي «خناق» يا ابني.. لم يستطيع أحد من الأطباء الذين زرتهم من شفائي.. وأخيراً.. قالوا لي اذهب إلى هذا العنوان ستجد فيه الشفاء.. وقالوا.. اذهب إلى هناك إما أن تشفى وإما أن يسكت قلبك تماماً... وعندها تتخلص من الحياة» إن هذا المكان حسب مايدعون يشفي الإنسان الذي يشكو من «خناق الصدر» يابني..

وقالت امرأة جميلة:

ـ هنالك غمامة على عيني.. حسب قولهم.. إن هذا الطبيب يعطي الدواء الشافي لذلك.. كانت إحدى جاراتي مثلي... تأتي في الأسبوع مرتين إلى هنا ولم يبق معها شيء على الإطلاق.

ـ ولماذا لم تذهبوا إلى طبيب آخر.

ـ من أين المال كل الأطباء يطلبون مالاً.. وهنا كما يقولون، فإنهم يعالجون مجاناً ويدفعون مالاً فوق ذلك.

ذهبت إلى الغرف التي تمت مداهمتها من قبل عناصر شرطة الآداب.. في أحد الغرف ضبطت فتاة في التاسعة عشر من عمرها بالجرم المشهود.. كانت تقول:

ـ أنا أشكو من مرض في القلب.. والآن أشعر أن المرض قد زال من قلبي والله لقد جئت إلى هنا.. من أجل معالجة قلبي..

قالت مدام انجيل:

ـ لن تصدقونني.. انظروا فوق الباب...

رأينا لوحة فوق الباب كتب عليها «خدمة أمراض القلب». وفوق الباب الآخر.. «خدمة المعالجة الفيزيائية». وفوق باب ثالث «خدمة الأكتافينا».. وفوق الباب الرابع «الخدمة الخارجية».

في إحدى الغرف وجدنا فتاة تناهز الثالثة والعشرين من عمرها. جسدها أبيض كزبد البحر.. وإلى جانبها وحش أم إنسان لا أدري.. كانت ضخامته وقوة عضلاته تشبهان إلى حدٍ كبير ملاكماً من الوزن الثقيل. جسده من الأعلى مغطى بالشعر.. سألت الفتاة:

ـ وأنت مم تشتكين؟

ـ أنا لا أشتكي من شيء. ولكن هذا الرجل يشكو من مسامير اللحم.. أقوم بعلاجه.. انظر إلى جسمه إنه مليء بهذه المسامير..

سألت الرجل:

ـ أهذا صحيح؟.. لم يجبني. قالت الفتاة:

ـ إنه لايتكلم...

ـ لماذا؟

ـ لأنه وحش مصارعة.. المسكين، جلبته مسامير اللحم من فرشة المصارعة وأنا أحاول تليين جسمه.

وفي غرفة أخرى... تم القبض على زوج أيضاً.. ولكن الاثنين كانا على نقيض تماماً.. فالرجل كان مخيفاً ووحشياً وقوياً أكثر من الرجل الذي كان في الغرفة الأخرى. أما الفتاة فهي غضة وجميلة وناعمة كالحرير ورقيقة تشبه خيار منطقة «جنكل كوي» إذا سحبتها من معصمها.. فحتماً ستتكسر.

ـ وأنت مم تشكين؟..

ـ إنني أشكو من الروماتيزم. أتعذب كثيراً كل ما أفعله يذهب هباء ولكن الآن.. آدام الله هذا الرجل.. يعمل لي مساجاً.. فالروماتيزم على وشك أن يزول تماماً.

قال الشرطي الذي كان يصف الأدوية في السيارة.. اقترح عليها ذباب الحمير «الزنابير». فغضب الرجل كثيراً وقال:

ـ ولماذا أترك الزنابير تلسعها.. وماذا يحصل لو قمت أنا بما تقوم به الزنابير..

غضب الرجل كثيراً.. فسكتنا جميعاً.. قال الشرطي الذي كان يشكو من الروماتيزم:

ـ لقد زال الروماتيزم مني تماماً.

أما الأخ الذي يعاني من مسامير اللحم فقال:

ـ أنا أيضاً بحاجة إلى معالجة قوية وسريعة.

قالت مدام انجيل:

ـ وكما تشاهدون.. إننا لا نعمل شيئاً قبيحاً هنا.. أنا أحاول خدمة الإنسانية. هنا «مشفى للحب».

جمع عناصر الأخلاق العامة النساء اللواتي تم القبض عليهن.. ووضعوهن في السيارة الحمراء... لمعاينتهن في مشفى الأمراض الزهرية. وقالوا للرجال.. هيا.. مع السلامة...

قال أحد الرجال:

ـ عملكم هذا ليس عدلاً أو سهلاً.. ماذا سنفعل نحن بعد الآن بدونهن..

وقال رجل آخر:

ـ أنا أعرف منزلاً آخر.. هيا نذهب إليه أيها الأصحاب..

قال لي سكرتير الجريدة: تخترع من عندك يا جعفر.. اكتب كما ترى وتشاهد.. وها أنا كتبت كما رأيت.. وسمعت.. لنر إن كان السكرتير سينشر هذه المقالة كما كتبتها أم لا.. وهل سيحذف منها شيئاً..



٢٣

من الجرائد...

«بعد بحث استمر ثلاث سنوات، تم القبض على النَّصاب المحترف سولو عثمان، وعاد ثانية إلى الفرار».

سولو عثمان في المخفر.. عيون المفتش وأربعة من عناصر الشرطة مصوبة نحوه:

«قال المفتش هامساً في أذن عنصرين من عناصره».

ـ سيد اسماعيل والسيد رجب.. اتركوا عيونكم الأربعة مفتحة جيداً.. هذا الرجل قاس جداً.. خذوا حذركم... كي لا يهرب.. ثمة ملاحظة في سجله..

«خذوا حذركم إنه يهرب لدى أول فرصة».

ـ لا تهتموا للأمر..

ـ أيها السيد المفتش... لي طلب أرجو أن تكلفوا السيد «نيازي»... بدلاً مني.

ـ لا أبداً.. بالأصل عيون نيازي صغيرة ومريضة..

ـ على الرأس والعين.

قال المفتش لسولو عثمان.. انظر إلي جيداً. لا تفكر بالهرب من هنا.

ـ استغفر الله... والله وبالله لن أهرب.

وعندما وضع الشرطيان الأغلال بيد سولو عثمان قال:

- ولك أخي.. والله شددت أكثر من اللازم.. هل هذا عدل؟

- هيا.. هيا.. هكذا أفضل.

- لقد ضغطت على الشريان.. فالدم لايمر.

- يمر. لا يمر.. لا يهمني.

خرج الشرطيان من المخفر وبينهما سولو عثمان. الشرطي اسماعيل يقبض على ساعده من اليمين. والشرطي رجب يقبض من كم سترته.. عسى ولعل..

- انظر إلي جيداً يا سولو عثمان.

- تفضل يا آبه..

- انظر إذا كان لديك عقل.. فلا تفكر بالهرب..

- ولماذا ذكرتني بالهرب الآن.

- إن استطعت فاهرب.. فأنت تعرف مصلحتك...

- بديني وإيماني لن أهرب.

- هذا يخصك.. في مسدسي خمس رصاصات...

بعد خروج سولو عثمان والشرطيين من المخفر مباشرة اتصل المفتش بالمخفر الذي سيستلم سولو عثمان..

- آلو... آلو.. أنت المفتش أحمد؟. نعم أنا المفتش أحمد.. سيدي لقد أرسلته مقيداً مع شرطيين من عندي..

- من هو الذي أرسلته..

- سولو عثمان..

- ماذا..؟

- سولو عثمان...

- أي واه...!

- أفندم...

- يعني.. لاشيء.

- في سجله ملاحظة.. كتب عليها.. خذوا حذركم.. إنه يهرب عندما تقوموا باستلامه... اتصل معي.

- على الرأس والعين..

قال سولو عثمان للشرطيين المصاحبين له.

- لقد ضغط الدم على معصمي ولك أخي.. حلوها بعض الشيء.

- عندما نصل إلى المخفر.. نحلها كلياً.

قال الشرطي اسماعيل للشرطي رجب هامساً.. رجب..

- ماذا هناك.

- هذا الرجل نيته عاطلة..

- افتح عينيك على الأربعة آمان.. ولك أخي.

- وإذا ما هرب...

- توه.. قاتل الله الشيطان.. بالأمس كان حذائي قد امتلأ ماء من الثلج.. وضعته قرب المدفأة.. كي ينشف... إنه يضغط على رجلي.. وإذا ما هرب..

- أنا الآخر.. في حذائي مسماران.. لا أستطيع أن أعدو «وقال بصوت عال». امشي رويداً يا سولو عثمان..

- لنسرع ولك يا أخي.. إن هذا القيد قد ضغط على معصمي..

- شوية ولك!.

وصلوا إلى حي مزدحم.

- أخي رجب...

- ماذا هناك؟

- وإذا ما هرب؟

- احترقنا.. وقال بصوت عال..

- ولك أخي سولو عثمان.

- تفضل يا آبه..

- بالله عليك.. لا تهرب..

- أكون قليل الناموس إذا هربت..

- إن استعطت فاهرب.. إذا كنت متعطشاً لموتك... اهرب..

- لن أهرب يا آبه..

تحدث الشرطيان بهمس:

- اسماعيل..

- آفندم..

- ستقوم بالتصفير حالاً.. إذا هرب.

- ولك.. احترقنا.. والله احترقنا.. وقال بصوت عال.. انظر إلي ياسولو عثمان.

- تفضل يا آبه.

- في أحد الأيام كنت أقود واحداً مثلك له سوابق عديدة.. وعندما وصلنا إلى مكان مزدحم كهذا.

- نعم.. يا آبه..

- وإذا به يهرب من بين السيارات..

- واه يا قليل الناموس.. ثم ماذا حصل بعد ذلك.. يا آبه.

ـ وهل نترك الناس يهربون على كيفهم.. انظر إلى عيني.. سحبت مسدسي وأفرغت الرصاصات الخمسة في رأسه..

ـ هذا حسن يا آبه... ولكن ألم يفعلوا لك شيئاً..

ـ بما أنني قتلته أثناء الهرب لم تقع عليَّ أية مسؤولية.. وبقيت على رأس عملي.. توقف.. لا تسرع هكذا.. ظهرت الشارة الحمراء.. امش ببطء..

«قال الشرطيان لبعضهما»:

ـ اسماعيل.

ـ ماذا هناك؟

ـ وإذا ما هرب؟

ـ ولك والله نحترق.. والله نحترق.. امسكه من جلبابه جيداً... وأنا ألتصق بساعده..

«وبصوت عال».. يا أخي سولو عثمان..

ـ تفضل يا آبه..

ـ انظر.. لا تهرب، لا يا أخي..

ـ لن أهرب يا آبه.. بالنسبة إلي.. كل من يهرب... جبان.

ـ لا تهرب.. وإذا سألت لماذا؟.. لأن الهرب من القانون ممنوع.

ـ لن أهرب والله وبالله...

ـ إذا كنت واثق من نفسك.. اهرب.. الأمر عندي سواء.. أليس كذلك يارجب؟.. الأمر بالنسبة إلينا سواء..

ـ إن الطقس جميل.. لا تجر بسرعة.. «وبصوت هامس».. رجب إن هذا الرجل سيهرب.. والله سيهرب.. لماذا يسلمونني دائماً مثل هذا البلاء.. يا إلهي.. يا ربي.. أنت تعرف كل شيء.. لا تجعله يهرب يا إلهي.

ـ إنشاء الله لن يهرب.. «وبصوت عال».. انظر إلي ياسولو عثمان..

ـ أنت تأمر يا آبه..

ـ أنت ستهرب..

ـ لن أهرب.. ولماذا سأهرب؟

ـ لا أحد يستطيع أن يخدعني.. أنت ستهرب...

ـ إذا هربت أكون من أرذل وأقل الناس ناموساً في هذا العالم... حلُّوا هذا القيد بعض الشيء.. ماذا سيحصل يعني؟..

ـ أنت لا تستطيع خداعي.. أنا شرطي منذ أربعة عشر عاماً.. أفهم الشخص بمجرد النظر في عينيه... أنت ستهرب...

ـ الله.. الله.. أقول لك لن أهرب ولك آبه..

ـ سولو.. لا تهرب يا أخي.. لا تهرب.. إن الهروب ليس حسناً في يوم من الأيام «وبصوت هامس».. إسماعيل.. إن هذا الرجل «سَيريش» أي سيطير مثل «الريش».

ـ حذائي يؤلم رجلي... وفيه عدة مسامير.. هل نركب «الترامواي».

ـ قد يهرب في الإزدحام. قد يهرب هذا القليل الناموس. لو نسلمه بخير إلى المخفر «وبصوت عال» اسمع جيداً ياسولو.. لنقل أنك هربت.. لكن بعد ذلك. سنقبض عليك.. وفكر أنت بالباقي.. ما من أحد يستطيع أن يخلصك من يدي.

ـ أقول لك لن أهرب يا آبه..

ـ لا تهرب يابني.. إذا هربت أرميك بالرصاص.. حرام على شبابك.

ـ إذا ما هربت.. ارميني يا آبه.. ليعاقبني الله بألف بلاء وبلاء إذا هربت، ولكن حلُّوا هذا الحديد بعض الشيء..

ـ سولون عثمان... لا تفكر بالهرب ها.. إياك.. ولكن أنت تعرف

مصلحتك.. إذا كنت رجلاً فاهرب.. ولكن فكر بهذا الأمر أيضاً.. «وبصوت هامس».

رجب هذا الملعون.. سيهرب.. يهرب يا اسماعيل...

ـ يا أخي كنت مناوباً الليلة الماضية.. فأنا نعسان..

ـ جئت إلى العمل.. ولم آكل شيئاً منذ الصباح وحتى الآن.... لا وقت لديك يا أخي..

ـ هل تتوقع أن يهرب هذا الهبُّور..

ـ يهرب.

ـ احترقنا..

سولو عثمان يتربص.

ـ لي رجاء عندكم يا آبه.. عاملوني بشيء من إنسانيتكم..

ـ ماذا هناك؟..

ـ منذ اسبوع وأنا أتنقل من مخفر إلى مخفر.. مواجهة هنا ومواجهة هناك.. لنمر على هذا المقهى.. كي آخذ بعض النقود من أصدقائي.. أمامكم وقربكم.

ـ انظر لا أستطيع أن أفعل هذا الأمر.. إذا طلبت شيئاً آخر معقول..

ـ إذا كان الأمر هكذا لندخل هذا المطعم.. ونأكل بعض الشيء معاً.. على الأقل..

ـ وهذا الأمر لا أستطيع أن أفعله يا أخي سولون.. لو كان بمقدوري. لفديتك بروحي..

ـ منذ اسبوع.. وأنا منهك جداً من التعب والانتقال.. لنشرب كأساً من الشاي في هذا المقهى..

ـ هذا أيضاً لن يكون..

ـ بطني يقرقر من شدة الجوع.. لنشترِ كعكة من هنا.

ـ والله يا أخي سولو.. هذا أيضاً غير ممكن.

ـ إذن.. دعني أدخل المرحاض.. فأنا محصور جداً..

ـ لا ياسولون.. إذا كان شيئاً آخر... معقول..

ـ ولك أخي حلُّوا هذا الحديد بعض الشيء.

ـ شد على أسنانك قليلاً.. نحن على وشك الوصول...

الشرطيان يتهامسان..

ـ اسماعيل...

ـ ماذا هناك يا رجب. ولك يا صديقي.. هذا الرجل سيهرب. والله نحترق يا رجب.

ـ بالله احترقنا.. «وبصوت عال» سولو عثمان..

ـ تفضل يا آبه.

ـ انظر يا أخي.. إذا هربت.. نحن مساكين.. عندنا أولاد.. أنا أعرف أنك ستهرب.. ولكن.. إياك أن تهرب.. لأنهم سيقطعون عنا لقمة العيش.. أليس كذلك ياسولو عثمان؟.. ولماذا ستهرب يعني؟. أنت تعلم ما يحصل إذا هربت.

ـ كلام ثقة يا آبه كلام ناموس.. لا تظل تذكرني بذلك بين وقت وآخر. والله لن أهرب..

ـ أنت تهرب..

ـ لن أهرب..

ـ لا تهرب يا أخي.. وإلا فإنهم سيقولون أنا الذي هرَّبتك.. انظر..

حتى إنهم سجلوا على أوراقك.. الحذر. إنه يهرب.. غير أنني أعاملك بكل إنسانية..

ـ أدامك الله يا آبه..

ـ انظر.. بقي عشر دقائق حتى نصل إلى المخفر... دعني اسلمك إلى ذلك المخفر.. ثم بعد ذلك.. افعل ما شئت..

ـ تكرم يا آبه..

ـ لا تزجني في مصيبة.. حرام عليك.. لن تهرب أليس كذلك؟

ـ ليكن كما تريد يا آبه..

ـ «بصوت هامس». آه يا اسماعيل.. لو نسلم هذا الشخص إلى المخفر..

ـ لو نسلمه. ولكنه سيهرب قليل الناموس هذا..

ـ سيهرب.. آمان.. خذ حذرك بعض الشيء..

ـ أنت أيضاً افتح عينيك جيداً.. ها نحن على وشك الوصول.. هاي يا ربي.. أنت كبير ياربي..

ـ إنشاء الله لن يهرب.. آمان..

ـ إنشاء الله.. وإذا هرب إنشاء الله يسقط على وجهه.

ـ يدخل الشرطيان مخفر «الجبالي».

ـ اووه.. شكراً لك ياربي..

ـ والله تخلصنا من مصيبة يا اسماعيل.. وماذا لو هرب منا.

ـ روح ولك عيني.. هل أنت ولد صغير؟.. لا يستطيع أي قبضاي أن يهرب مني.

ـ لو كان طيراً.. والله.. لن أدعه يطير..

يدخلان غرفة المفتش.. ويضعان سجل سولون عثمان فوق المنضدة..

ـ لقد أحضرنا لكم المدعو سولو عثمان للمواجهة.

ولكن سولو عثمان غير موجود حولكما.

بينما كان الشرطيان يدخلان المخفر بفرح وسرور كان سولو عثمان قد أخذ يد الشرطي رجب وأمسكها بثياب اسماعيل.. وامسك بيد اسماعيل ووضعها بيد رجب.. وفرَّ منهما...

سأل المفتش:

ـ أين هو..

ـ من يا سيدي؟

ـ سولو عثمان...

يهتف الشرطيان دفعة واحدة.. هذا هو.. ويريان بعضهما البعض.. الأول يمسك بطرف جاكيت الثاني والآخر يمسك بيد زميله..

ونظرا في عيون بعضهما البعض..

ـ سولو عثمان.

ـ قبل قليل كان هنا.

ـ دخلنا معاً إلى هنا.

ـ سولو عثمان..

ـ سولو..

ـ عثمان..

يخرج الشرطيان بسرعة من المخفر ويبدأان بالصفير.

ـ سولو عثمان..

ـ سولو عثمان..



٢٤

الإتفاق

أنا كالحديد.. مارست الرياضة.. بجميع أنواعها.. من السباحة حتى المصارعة. ولأمدح نفسي إذا قلت إنني فيما مضى كنت الأول على المتوازي «والثابت» فأنا لا أباهي بنفسي.. فهذا له علاقة بالحادثة التي سأرويها لكم.

يُصاب ساعدي الأيسر بالعطل.. مرة في الاسبوع.. وأحياناً مرة في الشهر.. فيخرج من مفصل كتفي الأيسر.. ولا يصيبني هذا الحادث وأنا أقوم ببعض الرياضات العنيفة. أبداً.. حتى وأنا أتجشأ.. ويخرج صوت حيث ينخلع ساعدي من الكتف.. تمام إن خلع ساعدي.. ليس حادثة مهمة بالنسبة إلي.. فهو كطقطقة الأصابع... وأحاول إعادة ساعدي إلى مكانه لوحدي.. أو بمساعدة أحد الأصدقاء.. لقد تعودت على هذه الحالة.. ولكن الآخرين لم يألفوا منظره.. فعندما يخرج ساعدي من مفصل كتفي.. يتدلى بشكل عجيب نحو الأسفل. والذين يرونني على هذه الحال.. يخافون خوفاً شديداً.. فيصرخون.. ويطلبون النجدة.. واضعين أيديهم على وجوههم. غير أني لا ألبث أن أعيد ساعدي الذي تدلى.. إلى رأس المفصل في الكتف.. بعملية بسيطة.. عندها يحتارون في أمري ويبدأون بالضحك والانشراح..

ولا تظنوا أن هذا الأمر يحدث.. دون ألم أو خوف.. من خلال سردي هذه الأحداث.. وخروج ساعدي من كتفي.. يرافقه ألم فظيع

جداً.. وإذا لم أعده إلى مكانه مباشرة.. لا أستطيع تحمل ألمه.. ولكن الألم لا يدوم أكثر من دقيقتين.. هذه الخصوصية عندي قديمة جداً.. ولم أعد أتذكر متى خرج ساعدي من الكتف لأول مرة.. بعض الأحيان.. يخرج عندما أحمل محفظة.. وبعض الأحيان عندما ألعب بورق اللعب وأضرب بيدي على الطاولة. لا أحد يعرف متى وكيف سيخرج..

زرت عدة أطباء. فظهر من خلال المعاينة الفيزيائية.. والأشعة اللازرية.. أن المفصل بين الكتف وعظم الساعد المتحرك قد أصابه ارتخاء.. (بايظ).

سألت الأطباء:

ـ هل هذه الحالة على درجة من الخطورة؟..

فاجمعوا كلهم أن خطورته في عهد الشباب لا تذكر تقريباً.. أما في حال الهرم والشيخوخة.. فخطورته كبيرة.. وتأتي هذه الخطورة.. من كثرة الخلع والترجيع.. لأنه في النهاية لا يتوضع في مكانه أبداً.. وخاصة إذا تآكل أو التهب. فيصبح الأمر أكثر خطورة.. وهنا لابد من بتره لعدم فائدته.

ولشدة خوفي تركت الرياضة بعد أن بلغت الثلاثين من عمري.. وأصبحت كاتباً.. شرعت باستعمال ساعدي الأيمن أكثر من ذي قبل.. لأنني لا أستطيع أن أكتب حرفاً واحداً بيساري..

ولي صديق يعاني مثلي ولكن من فكه السفلي.. فعندما يمضغ مضغاً قوياً أو يصرخ بصوت عال أو يضحك بقوة.. كان فكه يخرج من مكانه فيأخذ القسم المتدلي ويطبقه في مكانه كما يطبق علبة دخانه. صديقي هذا.. انتقل إلى الحياة السياسية.. وتعرفون.. ماذا يعني انتقاله إلى السياسة.. ففي كل جدل سياسي.. كان فكه يخرج من مكانه..

قبل أيام استلمت منه رسالة.. يقول لي فيها.. «في أحد الاحتفالات..

كنت أخطب بالجمهور.. وإذا بفكي يخرج.. حاولت إعادته إلى مكانه ولكن عبثاً حتى أن الأطباء المختصين لم يستطيعوا إعادته إلى مكانه.. والآن فكي يتدلى إلى الأسفل.. ولا أستطيع الكلام أبداً.. فبدأت أخدم وطني بالكتابة ليس إلا..

هذه الرسالة أخافتني كثيراً.. بدأت بحماية ساعدي الأيسر بجدية أكثر.. وبعدها، وخلال ثمانية أشهر لم يخرج ساعدي مرة واحدة.. والآن يقول لي الأطباء.. «ساعدك الآن أسوأ مما كان عليه، لأن العظام التصقت والتحمت ببعضها فإذا ما خرج مرة أخرى تكون إعادته إلى مكانه من رابع المستحيلات».

لولا هذا الخوف القابع في أعماقي. لما اشتريت آلة كاتبة. فالأحداث التي نحن بها هذه الأيام.. تحرق أعصابنا.. ولا يستطيع أي كاتب حساس أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه التطورات دون كتابة ونضال. هذه العصبية بالنسبة إلي.. هي أكبر خوف. فمن أجل تأمين لقمة عيشي. اشتريت «آلة كاتبة». وهذا الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة لي..

من مثلي.. يصفُّ الحروف فيجعلها كلمة.. ويُنمِّق الكلمات.. فيجعلها جملة.. ويصف الجمل... فيجعل منها سطوراً وقصصاً.. ثم يأخذها إلى دور النشر. وبعد ألف محاولة ومِنَّةٍ لتجعل الناشر يعجب بقصصك.. ويعطيك عن كل قصة عشر ليرات.. بعد أن يحسم منها مائة وخمسين قرشاً كضريبة للدولة.. أمام هذا الواقع.. ما معنى أن يشتري الإنسان «آلة كاتبة».. لي رجاء عندكم أيها القراء الأعزاء.. حتى ولو أزعجتكم بعض الشيء.. ضعوا هذا الأمر نصب أعينكم وفكروا به ملياً.. «كتبت ثلاثة أعوام... ليلاً نهاراً.. وإن صاحب دار النشر من خلال صفي للحروف والكلمات والجمل والقصص.. عاش عيشة سعيدة.

أرسل ابنه ليدرس في أوروبا.. وزوَّج ابنه الثاني.. وذهب هو شخصياً

برحلة استجمام إلى أمريكا.. أما أنا فدفعت ايجار منزلي.. ودفعت الضرائب. ولم يكن دخلي يكفي معيشتي أو يفك ضعفي.. اشتريت آلة كاتبة، والكتابة عمل فيه بركة.. فالذين يكتبون.. يعيشون جيداً.. كما يبدو للشخص العادي.. يفرح عندما يشتري بناية.. وهذا شيء مألوف جداً.. أما أنا فكانت سعادتي كبيرة وعظيمة عندما اشتريت آلة كاتبة بمبلغ خمسمائة وثمانين ليرة... كنت أحمل الآلة في يدي اليسرى.. ولشدة فرحي بها وسعادتي.. لم أركب سرفيساً ولا باصاً ولا حافلة ترام. كنت أمشي الهوينى وأزهو متبختراً.. أريد أن يسألني أحد عن هذه العلبة التي أحملها.. «ماهذه العلبة»؟. فأجيبه دون مبالاة.. لاشيء إنها آلة كاتبة ليس إلا..

وماحدث كان العكس فلم ألتق بأحد أعرفه أو يعرفني.. ولم يسألني أحد «ماذا تحمل أو ماهذا الذي في يدك»؟. كنت اغضب من نفسي ومن الآخرين.. وصلت الزقاق المؤدي إلى البيت.. فالقطار يمر أمامه.. وفي الطرف الثاني من سكة الحديد تقام سوق الخميس من كل اسبوع؟. وصادف أن كان ذلك اليوم يوم الخميس.. فحولت طريقي خصيصاً من هناك.. مررت في السوق.. وربما التقي بأحد المعارف فيسألني «ماهذا الذي في يدك»؟

دخلت إلى السوق.. مشيت ومشيت.. حتى وصلت المحطة.. ثمة ازدحام كبير في ساحة المحطة.. كلهم قرويون... كانوا يشترون ويبيعون.. الدجاج والهندي والبطاطا بالأكياس الكبيرة والفواكه بالقفف. كان جدالهم وصراعهم واتفاقهم وبيعهم يعجبني.. البائع والشاري يمسكان بأيدي بعضهما.. ويظلان يهزانهما حتى الوصول إلى الإتفاق.

منذ وقت طويل وأنا أبحث عن معنى هذه العملية. أي هز اليدين بين البائع والشاري.. حتى عند بيع وشراء جورب واحد.. لأنني كنت أجهل

السبب اقترب مني قروي نصف بدين وسألني:

ـ ما الذي في يدك يا ابن البلد؟

تصوروا الفرحة التي أصابتني.

صرخت بكل قوة: إنها آلة كاتبة.

أحاط بي عشرة قرويين من كل جانب. وتستطيع أن تقول حاصروني. نعم كنت قد حوصرت فجأة... سألني ذلك القروي الشاب:

ـ هل هي للبيع يا ابن البلد؟

كنت اشعر بفرح عظيم لشرائي الآلة الكاتبة. فقلت في نفسي. لأفرح بعض الشيء مع هؤلاء القرويين. قلت:

ـ للبيع.. هل تشتريها..

وماذا تفيد الآلة الكاتبة القروي.. لو كان ثوراً.. فيها وجهة نظر وإذ به يسألني: كم تريد ثمنها؟

كان القروي قد استحق السخرية.. وبما أنني مسرور ومرتاح... قلت:

ـ ألف ليرة.

وما أن خرجت كلمة ألف ليرة من فمي فإذا بذلك القروي الشاب يمسك بيدي اليمنى.. يهزها. ويضغط عليها..

ـ وقف ولك يا أخي.. وقف.. وقف ولك.. ماذا تفعل.

من جهة كان يضغط على يدي فأوشك أن يحطم أصابعي.. ومن جهة كان يقول:

ـ قل المعقول حتى نشتريها.

ـ وقف ولك أخي.. بحق الله.. وقف ولك وقف ياهو.... لاتهز يدي ستكسر ساعدي.

ـ هيا قل الكلمة المعقولة حتى نشتريها.

ـ اترك ساعدي ولك.

ـ لا تطيل المسألة.. قل السعر الأصلي حتى نتفق.

كان القروي الشاب يهزني.. كما يهز شجرة التوت.. وكنت أرتفع وأنزل إلى الأرض مع كل هزة.

ـ لا.. لن أتركك قبل أن نتفق.

ـ ولك أخي.. ما عندي مال للبيع.. اذهب إلى عملك.

ـ لا.. يا ابن البلد.. الكلام يخرج من الفم.. قلت هذا للبيع أمام الجميع وكلهم سمعوك.. لا تلحس الذي بصقته.

ـ نحن سمعنا.. قلت للبيع.

ـ سمعنا... والله شاهد قلت إنه للبيع.

ـ والله قال ولك أخي.

إن تركت ساعدي بيده.. والله سيخلعه من مكانه.

ـ ولك أخي.. لا تضغط على يدي.. اتركها.. ستقطعها..

ـ والله لن أتركك.. قل شيئاً حتى نتفق.

رأيت أن لا مناص من تخليص يدي منه. لم يبق عندي مجال سوى بيع الآلة الكاتبة.. قلت أبيعها بالثمن الذي اشتريتها به. وأعود فأشتري واحدة أخرى.

قلت: خمسمائة وثمانون ليرة.

ضحك الشاب القروي.. ومن جهة أخرى شد على يدي عدة مرات وبقوة. وهزها. وفي كل هزة ترتفع قدماي عن الأرض.. أطير في الهواء...

قال: اترك الخمسمائة.. ودعني أعطيك ثمانين ليرة.

ـ يا صديقي.. قبل كل شيء اترك يدي.. ودعنا نتحدث بروية.

ـ الإتفاق حق يا أخي.. لا تترك اليد إلا بعده.

ـ اترك ولك.

ـ لا.. ولا تثقل من ألفاظك.. لا أحد يأخذ رزقك نصباً أو ظلماً أو قهراً رزقك في يدك.. ونقودي في جيبي...

ـ هذا حسن.. لن أعطيك..

ـ ولك يا روحي.. يا ابن البلد.. لماذا تريد بيع هذا الشيء للغريب نحن بدأنا الاتفاق.. فدعنا ننهيه بسلام.. أنا دفعت ثمانين ليرة. وقل أنت كلمة.

ارتفعت الأصوات من حولنا..

ـ هيا اتفقوا..

ـ اتفقا...

رأيت أن لا مناص من تخليص يدي منه فقلت:

ـ يا ابن البلد.. ماذا يحصل لو تركت هذه اليد وأمسكت بدلاً منها اليسرى..

ـ هذا غير معقول يا أخي.. اليد اليسرى فيها شر واليمنى فيها الخير. اليد اليمنى فيها الحظ.. قل أنت الآخر كلمة.. مالك معك، ومالي معي..

وضعت الخسارة نصب عيني كي أنقذ يدي.. وقلت:

ـ تركت لك الثمانين. أعطني الخمسمائة.. قبل قليل اشتريتها بخمسمائة وثمانين ليرة.. والله أكون قليل الشرف والناموس إذا كنت أكذب.

- اترك الناموس جانباً.. لا أحد يتحدث عنه. إن الإتفاق يحلل دراهم البعض.. ودعاء البعض.. سأعطيك حلال زلال.. ليرتين ونصف. طبعاً لن تستطيع أن تقول كلمة واحدة.

- اترك يدي ولك يا أخي.

- وهل يكون الإتفاق إذا ماتركت يدك.

- على الأقل.. لا تهزها..

- وهل هنالك طعم للإتفاق إذا ما هززتها..

وقعت بمصيبة كبيرة.. لايستطيع أحد أن يفسرها. كان الرجل يهز يدي ويضغط عليها كأنه قالب حديدي.

- لاتهزها يا صديقي.. هذه ليست ذراع مكنة.. إنها ذراع إنسان.

قال الذين أحاطو بي:

- ولك روحي.. هذا إتفاق.. أنت الآخر هز يده.

وهل بقيت عندي قوة للهز.. لقد تخّدرت يدي وذراعي..

- أبيعها لك وهذه آخر كلمة مني مقابل أربعمائة ليرة.. رجاء يا ابن البلد.. فقط دع يدي.

قال بعد أن هزَّ يدي عدة مرات:

- هيا.. بسم الله... سأعطيك نصف ليرة أخرى.. اتركها لي بثلاثة وثمانين ليرة..

صدرت مني أنَّه.

- آه... آآه... أعطني ثلاثمائة ليرة وخذها ولك أخي.

- ها.. بسم الله.. مني خمسة وعشرين قرشاً.. إنه مال مسلم.. تجد فيه الخير..

كنت أصرخ كالثور.. لم أعد أخاف من خروج ساعدي.. ولكنه كان سيقطعها كلياً..

ويظل ساعدي في يده.

ـ اترك المزح.. الساعد الذي لايستطيع التحمل حتى نهاية الإتفاق ارمه وتخلص منه هيا.. بسم الله. من أجل خاطرك سأعطيك خمسة وعشرون قرشاً آخر. لن أعطيك قرشاً آخر.. فكر بالأمر..

من أجل تخليص يدي منه كنت أنزل في كل مرة مائة ليرة.. وهو يصعد خمسين أو خمسة وعشرين قرشاً.

ـ أعطني مائة وثمانون ليرة وخذها.. اترك يدي.. في هذه المرة صرخت في وجهه..

قال الذين يحيطون بي:

ـ هيا اتفقا.. هيا اتفقا... لم يبق بينكم فرق كبير..

ـ قال الشاب:

ـ إن الإضرار بمال المسلم حرام.. سأعطيك ربعين آخرين... ولن أعطيك بعدها «عشر بارات»..

ـ ولك.. أعطني مائة ليرة..

ـ هذا كل ما أملكه... ها قد أضفت لك ربعاً آخر.. هيا حلّل..

كان ألم ساعدي قد دخل إلى أعماقي.. فصرخت بكل قوتي..

ـ بوليس.. بوليس..

فكروا بالأمر.. لولا قوة الحكومة لم أستطع أن أخلص يدي منه.. كم كان صوتي قوياً من شدة الألم.. بحيث أن البوليس الذي سيأتي إلى مكان وقوع الجريمة بعد يومين أو ثلاثة.. يكون عندي خلال لحظات... وسألني..

ـ ماذا هناك.

قلت: إنه لايترك يدي.

قال الشاب القروي: إننا نتفق ياسيدي.

قال الشرطي: وهل الإنسان يصرخ هكذا عند الإتفاق.. هيا اتفقا.. عندما لم ألق مساعدة من الشرطة.. وعندما لم يسعفني الشرطة بالخلاص من القروي.. توكلت على الله الكبير.. ولبطته لبطة قوية بين ساقية.. فصرخ صرخة قوية «هيه» وبدأ يتدحرج على الأرض.. ولكنه لم يترك يدي. وكأن يدي قد انصهرت والتحمت في يده.. قال وهو يئن ويتدحرج على الأرض.

ـ هيا اعطيك ربعاً آخر.. هيا نحلل لبعضنا.

قلت: خذها.. لعلك ترى فيها الخير..

وتركت الآلة من يدي.. هو الآخر ترك يدي اليمنى.. إن ساعدي يتدلى من كتفي كفخذ ثور معلق في دكان قصاب.. عندما كنت أئن من شدة الألم.. كان القروي يعد ثلاثة وثمانين ليرة وخمسة وثلاثين قرشاً.

لم تعد يدي اليمنى تنفعني بشيء... ألقيت هذه القصة على مسامع زوجتي.. وهي التي كتبتها لكم..

الآن فهمت تماماً.. لماذا يقوم القرويون بهز أيدي بعضهم البعض لساعات طويلة.. اليد الأقوى.. هي التي كانت تربح الإتفاق حتماً..

لو جربنا طريقة القرويين.. مع الوفود التجارية الأجنبية.. فإننا نخرج حتماً من الاتفاقيات رابحين....



المحتويات

الاحتفال بالقازان

أخيراً تمّ وضع القازان في مكانه، وسط قرقعة الملاعق والسكاكين والشوك، ودون مساعدة من أمريكا. ونظراً لغياب التكنولوجيا، فقد جرى نقل القازان إلى مطبخ الصدر الأعظم ليستخدم كقدرٍ لطهي الطعام.

تمنيت من صميم قلبي أن أعمل حمالاً، أو أبقى عاطلاً عن العمل وجائعاً حتى الموت، من أن أظل تحت رحمة المعلم الذي استغلني طيلة فترة عملي عنده.

قلت لصديقي: لقد غابت عن المدارس برامج تدريس الأخلاق، كالاستقامة والنزاهة والجرأة، لتحل محلها أساليب السرقة والخداع والتخاذل، فهل تعلم ما هو مصيرنا؟

قصص ممتعة جذابة تطالعونها في هذا الكتاب.

الناشر

السعر ١٢٥ ل.س

135.00